أثرُ القرآن الكريم في صفوة الصِّفات في شرح دعاء السِّمات للشيخ الكفعميّ رحمه الله (ت ٩٠٥هـ) قراءة في المرجعيَّات التَّفسيريَّة ومستوياتها في التَّوظيف والإجراء

(القسم الأوَّل)

أ.م.د. عماد جبَّار كاظم داود

جامعة واسط/كُلِّيَّة التَّربية للعلوم الإنسانيَّة

The Effect of The Holy Qur'an on "Safwat Al-Sifat fi Sharh Doaa Al-Simat" by Sheikh Al-Kafami (d. 905 A.H) Read Interpretive References and Their Standards of Usage and Procedure (First Section)

Asst. Prof. Dr. Emad Jabbar Kadhem Dawood

University of Wasit/College of Education for Human Sciences

مُلخَّص البحث

لا مريـةَ في أنَّ الخطاب القرآنيّ متداخل في كلِّ مفاهيـم النَّصّ الدِّيني، بل هو منها بعدهـا الظّاهري الأنيق، والباطنيّ العميق، إنَّه يقين يتخلّل مفاصل النُّصوص، ويجعل منهـا قنـوات نقيَّة تزهر بها حقائـق ودقائق، وتندفع باسـتفتائه عنها شـبهات وأوهام، يفتـح منها ما كان مغلقًا، ويكشـف عنها ما كان غامضًا، فتطمئـنُّ لها قلوب باحثة عن معارف.

ولعلِّي أقرأ بمقاربةٍ مأثور الحديث: «**إذا التبسـت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فإنَّه شـافعٌ مشـفع، وماحلٌ مصدق...**». أقرأ فيه دسـتورًا لا يقف عند حدٍّ في مفاهيم دون أخرى، بل يمكن أن يكون نصًّا تفسـيريًّا لنفسه، ولنصوص أخرى عندما يحيط بها الإبهام والشَّـكّ، فتسـتضيء بنوره، وتسـير على هديه، وتعمل بإرشاده، فتنقشع عنها الإشكالات والاحتمالات، ومن هنا يمكن أن ندرك لماذا تتحدَّثُ مراصدُ نظـمِ الحقِّ عن ملازمـة برهانيَّة الوصف القـرآنيّ: «كِتَـابُ اللهِ.. يَنْطِقُ بَعْضُـهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ...». وعلى حدٍّ «بشرطها وشروطها».

إنَّها مسـلَّمة معرفيَّة قامت على مبدأ وسـاق، ووسـيلة منهجيَّة بـدت واضحة عند الشَّـيخ الكفعمـي رحمه الله في مسـاق، عندما اعتمد النَّـصَّ القرآنيّ مرجعيَّة في تفسـير النَّصّ الدُّعائـيّ- (دعاء السِّـمات) في كتابه (صفـوة الصِّفات)- يقارب النَّـصَّ فيها بالنَّصِّ، ويسـتفتي فيها عن المفردة والسِّـياق الدُّعائيّ بالمفردة والآية والسِّـياق القرآنيّ، ويعادل فيها التَّفسـير بالتَّفسـير، ويقرن الفهم بالتَّأويل. لقد كان رحمه الله يسـتنطق النَّصّ، ليفجِّر فيه

من معانيه طاقاتهِ ودلالاتهِ القطعيَّة والاحتماليَّة، ولعلَّ في الاحتمالات منها شانًا بحسب القراءات والدَّلالات، حتَّى كأنَّه يوازن بين منظومَتَين بلا تباين أو اختلاف، تعتمد إحداهما على الأخرى، فتكون كفَّة القرآن الكريم وعلومه تارةً ميزانًا لسياق النَّصِّ الدُّعائيّ عند الاستدعاء والاستصحاب شرحًا وتوضيحًا، ومرجعيَّة لسياق النَّصِّ القرآنيّ نفسه في أخرى تفسيرًا وتأويلًا، وكأنَّ النَّصَّ القرآنيّ هو الهدف، وتفسيره هو المبتغى، ناهيك بالهدف الأوَّل- النَّصّ الدُّعائيّ المشرَّح.

Abstract

There is no doubt that the Qur'anic discourse intertwines all the concepts of the religious text. Rather, it is from its outward, elegant, and deeply esoteric dimension, which is certainty that permeates the details of the texts, and makes them pure channels in which facts and minutes flourish, and they are driven by its questioning of suspicions and illusions, from which what was closed is opened. The mysterious is discovered from it, and the hearts find it in search of knowledge.

Perhaps I would read with an approach to the hadith saying: "If you are confused by temptations such as cutting off the dark night, then you have to follow the Qur'an, for it is an intercessor, and a sincere speaker ...". I read in it a constitution that does not stop at a limit in concepts without others, rather it can be an explanatory text for itself, and for other texts when surrounded by ambiguity and doubt, so that you will illuminate with his light, follow his guidance, and work with his guidance, so the problems and possibilities are cleared from them, from here we can realize why The Systems of Truth Observatories speak of the evidentiary insistence of the Qur'an description: "The Book of Allah... speaks to one another, and one witnesses to one another ...". And on the boundary "with its terms and conditions".

It is an epistemic axiom based on a principle and legacy, and a Systematic method that appeared clear to Sheikh Al-Kafami in his course, when he adopted the Qur'anic text as a reference in the interpretation of the text of the supplications- (doaa' alssimat) in his book (Sefwat al-Sifat)- he approximates the text in it with the text, and a questionnaire in it on the singular

The context of the supplications in the singular, the verse and the Qur'anic context, equating interpretation with exegesis, and linking understanding with exegesis. He was interrogating the text, exploding in it the meanings of its deterministic and potential connotations, Perhaps the possibilities are something according to the readings and connotations, even as if it is a balance between two systems without discrepancy or difference, one of which depends on the other, so that the balance of the Noble Qur'an and its sciences at times is a balance for the context of the supplications text when summoning and accompanying an explanation and explanation, and a reference to the context of the text in the other Qur'an. As if the Quranic text is the goal, and its interpretation is the goal, not to mention the first goal- the annotated propagandistic text.

المُقدِّمة

يكنـز النَّـصّ الدُّعائيّ مواثيق مـن معارفَ عباديَّـة، ومعاقد من مفاهيـم روحيَّة، في موسـوعة موضوعيَّة قدسـيَّة، نظَّمت نفسها في لغةٍ، ترتشـف من المستويات الأدبيَّة أعلاها وأرقاها، ومن المدارج التَّخاطبيَّة أصفاها وأنقاها، تنسـج مضامينها سـجلًّا من ملامح الإنسـانيَّة، وتمثِّل شـبكتُها تاريخًا في التَّكوين والنُّطـق الأوَّل: التَّلقِّي والامتثال، قـال تعـالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، فتعيَّنت منها أبجديَّة من ناسـوت الدَّاعين، ترسم حروفها مراتب من قلوب الخاشعين، وتحكي سـطورها قصصًا من وَلَهِ السالكين، وتسرد روايتها أمثالًا من أحوال العاشقين، وتنشد ألحانًا من مناجاة المحبِّين، وأشـواق المناجينَ، وتكشـف شـفرات مـن أسرار العارفينَ. إنَّه إكسـير العبادة، سراج يجلي هموم النَّفس، وضياء ينير ظلماتها... فيسـمو بها إلى عطاء مطلـق، يفتـح لها أبواب السَّـماء، ويعرج بالرُّوح إلى مشـارفها العليـا وصلاتها الأولى، لقد آنسـت فأشرقت، حين سَـمِعَتْ و وَعَتْ فآمنتْ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[2]، ثُـمَّ أدركـتْ فاطمأنـتْ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3]، ثُمَّ اسـتبشرت فاسترشدت: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٧.

(٢) سورة غافر، من الآية: ٦٠.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، مبدأً، وسلوكًا، وغايةً.

لقد واثق الخطاب القرآنيّ منظومة الأنساق السُّلوكيَّة إلى الله سبحانه وتعالى في أبوابها الدُّعاء، وعقد في عهديَّاتها موجباتها الاقتضائيَّة، في حكمة الإيمان والإذعان لأوامره ونواهيه تعالى؛ كدعوة أولى منه جلَّ شأنُه للإنسانيَّة؛ تحصيل الرقي الرُّوحيّ والإرشاد في المبدأ والمعاد؛ وإجابة لدعوة ثانية منه عَجَّلَ؛ لطفًا وتوفيقًا وتكريمًا للعبد الدَّاعي؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2].

وأسَّست المدوَّنةُ التَّفسيريَّة[3]، والحديثيَّة[4] منه (الدُّعاء) شريعةً، اتخذ منه سبيلًا لانعقاد أصولها، ومنهجًا لرواسخ موضوعاتها، وثمار نتائجها وأهدافها، كشأن الموضوعات العقديَّة والتَّعبُّديَّة، بل لعلَّه يجري منها مجرى الأصل؛ كونه مفتاح الرَّحمة، وعمود الدِّين، ونور السَّماوات والأرض[5]، إلى خلاصة وصفه بـ«مخّ العبادة»[6]. ولهذا كانت المرويَّات تحمل في تضاعيفها من النَّفائس الابتهاليَّة، والنَّفحات الرَّبَّانيَّة،

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٣) ينظر: التبيان، الطوسيّ: ٢/ ١٢٨-١٣١، ومجمع البيان، الطبرسيّ: ٢/ ١٢-١٤، والبرهان في تفسير القرآن، هاشم البحرانيّ: ١/ ٤٠٤-٤٠٥، والميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ: ٢/ ٣١-٤٤، ومواهب الرحمن، عبد الأعلى السبزواريّ: ٣/ ٦١-٨٨.

(٤) ينظر: ما عُقِد في أصول الكافي، من أبواب الدُّعاء: ٤/ ٢٩٧، ومكارم الأخلاق، الطبرسيّ: ٢/ ٧-٢٢، وسلوة الحزين (الدعوات)، الراونديّ: ١٠-٧٦، والمحجَّة البيضاء، الفيض الكاشانيّ: ٢/ ٥٠٥، ووسائل الشيعة، الحرُّ العامليّ: ٧/ ٢٣، وبحار الأنوار، المجلسيّ: ٩٠/ ٢٨٦.

(٥) المحجَّة البيضاء: ٢/ ٥١٠.

(٦) ينظر: المصدر نفسه: ٢/ ٥٠٥.

والأرواح القدسيَّة، ما ترجمته كتب الأدعية وأبواب الأذكار، وكان منها (دعاء السِّمات)[1]، الذي آنست في شرحه أرواح العلماء، وتبرَّكت في إيضاحه أقلام الفضلاء، ومنهم الشيخ إبراهيم بن عليّ بن الحسن الكفعميّ (ت ٩٠٥هـ).

ولقد استدعى الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله من مرجعيَّاته الكثيرة مفاهيم، واستصحب من ثقافته العميقة أصولًا أعدَّها إعدادًا مخصوصًا في التَّوظيف والشَّرح لنصِّ (دعاء السِّمات)، كان من أعلاها أثرًا، وأكبرها سمةً، النَّصَّ القرآنيّ وسياقاته وعلومه التي كان يقارب بها عبارات (دعاء السِّمات)، ويوازن بينهما نصوصًا، يجعل منها قواعد وقرائن في التَّوجيه والتَّفسير، فيتَّخذ من رحيق الأوَّل- القرآن الكريم- مدادًا؛ لتوصيف السفر الثاني- الدُّعاء- فيكون شرحًا نصوصيًّا وقراءةً تراكميَّةً تشريحيَّةً له، وينتقي من الأخير ما يُقارب به الأوَّل فيكون تفسيرًا وتوجيهًا له، يمسك من الأوَّل بمبادئ، فيسوقها جواهر تتلألأ بها فقرات الدُّعاء ومفرداته بيانًا وتوضيحًا، ويختبر من الثاني سببًا معرفيًّا في تفسير النَّصِّ القرآنيّ، ولعلَّه أكثر، حتَّى كأنَّ النَّاظر يقرأ نصَّين/ خطابَين في كتاب واحد تمثَّلت فيه مستويات معرفيَّة متعدِّدة تجانس فيها المختلف لهدف في المؤتلف... ولا شكَّ، فالجامع بينهما سمات من الملكوت الأعلى، والفيض الأسنى، إذ إنَّ الأوَّل: منبعه البارئ تعالى شأنُه، والثاني: مساق المعصوم!.

ولهذا لم يكن الأثر القرآنيّ ومستويات توظيفه في الشَّرح والتَّوضيح لديه- أعني: (الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله) في (صفوة الصِّفات في شرح دعاء السِّمات)- لم يكن لِيُترك من غير نظر ودراسة تسعى إلى رصد ما فيه من منهجيَّات وآليَّات، وكشف ما فيها من ملاكات وثقافات، تلك التي كان يُسلكها الشيخ في الشرح والتَّفسير والبيان؛ ولهذا جرى في نظري المتواضع أن أسير في ربوعه: (الصَّفوة)، وأنظر في صحائفه، كاشفًا

(١) ينظر في رواية هذا الدعاء وسنن أسناده المعتبرة وعلَّة تسميته وفضله: صفوة الصِّفات: ٦٥-٧٢.

عن الأثر القرآنيّ ومستوياته وأدواته المعرفيَّة في تفسير النَّصِّ الدُّعائيّ، وعِلَّة الأخير في تفسير النَّصِّ القرآنيّ، وذلك في قراءةٍ يسيرة جعلتُ رؤاها منهجًا على فقرات تسابقها أُخُر، وتعلوها عتباتٌ، كلٌّ منها يصدِّر عنوانه اجتراحًا من سياقها المفاهيميّ في التَّوظيف والإجراء، وذلك في محورين، وخاتمة، أمَّا الأوَّل: ففي الأثر القرآنيّ المرصود، وأمَّا الثاني: ففي ملامح التَّفسير والموضوعات القرآنيَّة التي تؤلّفت فيه. وأمَّا الخاتمة، فذكرت فيها أهمَّ ما رُصِدَ من نتائج.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

بين يدي البحث

في جدليَّة التَّوليف- بين مركزيَّة النَّصِّ وهامشيَّته

قراءة في المنازل المعرفيَّة ومرجعيَّات التَّكوين: كتاب صفوة الصِّفات

تقتضي قراءة أيّ أثر معرفيّ ولوج مستوياته البنائيَّة والتَّكوينيَّة الدَّاخليَّة منها والخارجيَّة، بل تستلزم في بعض الأحيان مسايرة الفهم ومستوياته الرأسيَّة والائتلافيَّة التي جرى عليها المنشئ، وتصنيف الآليَّات والأدوات التي اعتمد عليها في التَّكوين وممارسات التَّوصيف والاستدلال والنَّقد، وصولًا إلى مدارك الأهداف والغايات المقصودة منه.

لقد تولَّدت للشَّيخ الكفعميّ رحمه الله ثقافة ومبانٍ معرفيَّة واسعة، أجرى بها وعليها منهجيَّة كتابه (صفوة الصِّفات)، ابتدأت خصائصها بتصوُّرات ضرورة سابقة على نظم التَّشريح والإيضاح والتَّفسير، وحدَّدت ملامحها إستراتيجيَّة مخصوصة بالاشتغال والإجراء، فكانت أبجديَّاتها في: (مقدِّمة وقطب)، شرَح في المقدِّمة أصوله التالية في التَّوصيف لهذا القطب، وهو (دعاء السِّمات) في مقولات يمكن أن ندرك منها كيفيَّات اعتماليَّة على محورين: مركزيّ وهامشيّ، ألَّف كلٌّ منهما مع الأخرى جدليَّة متضافرة الجوانب والأركان في هدف معرفيّ، قال فيها: «ورُبَّما فسَّرت الشَّيء في غير مداره، فيأتي أحسن من مركزه؛ وذلك لئلَّا ينقطع الكلام، ويتطلَّع الانتظام، وبالله اعتصم ممَّا يصم،

واستتم ممَّا يعمّ، وبه استعين، وهو نِعمَ المعين»[1]. وأكَّد دوائرها الموسوعيَّة في المتن، على نحو تنبيهات، ومتمِّمات، ونقولات في فوائد شتَّى[2]، قال: «وبالجملة فقد خرجنا بالإسهاب في هذا الباب عن مناسبة الكتاب غير أنَّ الحديث ذو شجون»[3]؛ وكذا في قوله، بعد أن استوفى عشرين نوعاً من أنواع البديع، قال: «وغير ذلك ممَّا يستنبطه الناقد البصير بقوة الفِكْر، ولو شرحنا ألفاظه على الاستيعاب، لكانت أعظم حجمًا من هذا الكتاب، وبالجملة فقد خرجنا في هذا الباب بالإطالة عن مناسبة الرِّسالة»[4].

ولذلك كان، في بعض الأحيان، يحيل إلى مصادرها ومراجعها ومدوَّنات كان قد اعتمد عليها، مثل قوله: «ومعاني اللامات كثيرة تناهز أربعين معنى، وقد أفرد محيي الدين إبراهيم ابن عُمر الفاروثيّ معاني اللامات كتابًا سمَّاه: ضروب اللامات، ليس هاهنا مكان ذكرها»[5]. وقوله: «وقيل: إنَّها تسع آيات في الأحكام ذكرها الطبرسّي في تفسير آخر آيات سورة الإسراء، فذكركم [كذا] هذه الآيات كافٍ عن كتبها، والاختصار أولى بالمختصر»[6]، وقوله: «وقصَّته [أي: النَّبي موسى] مع فرعون تُعلَم من كُتُب التَّفاسير، وليس هذا مكان ذكرها»[7]، على الرّغم من إيفائه لها.

إنَّ ما عُقِدَ في متن الكتاب (الصَّفوة) من أصول وفروع، وفي مركزيَّة مخصوصة، وهي النَّصُّ الدُّعائي (السِّمات) وشرحه، وفي هامشيَّة مقصودة جدًا، وهي النَّصُّ

(١) صفوة الصفات: ٦٤-٦٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، مثلًا: ٨٢، و١٠٢، و١٢١، ١٢٨، و١٤٨، و١٥١، و١٧٣، و٢١٧، و١٥٥، و١٩١، و٢٠٥، و٢٤١، و٢٩٠، و٣٢٢، و٣٧٨، و٣٨٤، و٤٤١.

(٣) المصدر نفسه: ٣٠٠.

(٤) المصدر نفسه: ١٠٦.

(٥) المصدر نفسه: ٨٩.

(٦) المصدر نفسه: ٢١٧.

(٧) المصدر نفسه: ٣٧٧.

القرآنيّ وتفسيره، حتَّى أصبح المركز/ النَّصُّ الحاضر- النَّصُّ الدُّعائيّ- هو الهامش/ النَّصُّ الغائب، والهامش- النَّصُّ القرآنيّ- هو المركز، وهكذا في قانونٍ تحاوريٍّ بين النُّصوص وعلاقاتها المتداخلة، عند الشَّرح والتَّوضيح والتَّفسير، وتماهي المركزيّ منه في الهامش؛ لأنَّ الأخير يتجلَّى في كُلِّيّات المركز، إذ قيمته، أعني: (دعاء السِّمات) المعرفيَّة حتمًا إنَّما تكون به، أعني: بالقرآن الكريم. أقول: إنَّ ذلك إنَّما يرتكز على داعٍ من رؤيَّة عميقة، ويستند إلى فلسفة متعالية في التَّكوين، وهي رؤية قِوامها، في ظنِّي اليسير، وكلُّ ما في اعتباراتها وأجنحتها التَّأسيسيَّة والتأصيليَّة- القرآنُ الكريم.

أقول: إنَّ هناك رؤية اعتُمِدَت قرآنيًّا؛ لتكوين أنساقها في (الصَّفوة)، وهي إجابة مضمرة علَّتها في سؤال: **لماذا النَّصُّ القرآنيّ الكريم؟!**.

صحيح أنَّ النَّصَّ الدُّعائيّ (السِّمات) هو القصود الأوَّل في التَّوصيف والبيان والتَّشريح، ولكن صحيح أيضًا أنَّ كلَّ ما في النَّصِّ الدُّعائيّ كائن في النَّصِّ القرآنيّ تصريحًا وتضمينًا، شكلًا ومضمونًا، ومن البداهة أنَّ الإلمام في معارف النَّصِّ القرآنيّ وعلومه، هو السَّبيل الأمثل في طرق أبوابه والكشف عن أسرار نفسه وتفسير إبداعه، فكيف بغيره (دعاء السِّمات)، وهو منه تجليًا، ولذلك كان طريق الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله مهيَّأً جدًّا؛ لأنَّه وقع على مصابيح نفذَ من خلالها إلى شبكة النَّصِّ الدُّعائيّ، وهي المدارك القرآنيَّة، أصولًا ومعارفَ وموسوعاتٍ، تلك التي تجلَّى تأثيرها في شرح النَّصِّ الدُّعائيّ: (السِّمات)، ولا غرابة، فمَن قام على معرفة أساس من نظام الواجب، حاز على أنظمة الممكن.

ولذلك كان الإجراء منه رحمه الله بعد أن تشرَّبت سور القرآن الكريم وآياته، وأخذت علائقها اللطيفة في نفسه الكريمة، وامتزجت نُكَتُها الدقيقة في قلبه الطَّاهر، على نحو:

١. تنسيق مفردات النَّصِّ القرآنيّ على أساس مفردة كُلِّيَّة في النَّصِّ الدُّعائيّ؛

استنطاق النُّصوص، ثُمَّ تنظيمها وتوظيفها في الشَّرح والتَّوضيح والتَّفسير.

٢. كشف ما في المفردة الدُّعائيَّة من إشارة ودلالة على أساس نظائرها ومشابهات لها في النَّصِّ القرآنيّ، ثُمَّ «تفسير القرآن بالقرآن»، حتَّى كأنَّه النَّصّ القرآنيّ تفسيرًا، في معرض النَّصِّ الدُّعائيّ شرحًا، وهو السَّبب.

لقد كان يلتمس من سياق النَّصِّ توضيحًا، ثُمَّ يأتي في ضوئه؛ ليفسِّر النَّصَّ الدُّعائيّ والقرآنيّ معًا، فإذا بالقارئ في دهشة أمامَ نصٍّ قرآنيٍّ مفسَّر، فضلًا عن النَّصِّ الدُّعائيّ المقصود المشرَّح. وهو بذلك قد حاز على مدارك معرفيَّة في سياق واحد. إنَّها بنائيَّة توليف ومنهجيَّة تشريح، سعت إلى تكوين ذاتها داخليًّا، وهندسة كتاب وقعت على جهتَين في مبدأ من العلم التَّوحيديّ، امتزجت فيه الرؤية بالممارسة، والمنهج بالتَّطبيق والتَّوظيف بالإجراء.

هذا عن سياق التَّوظيف والقراءة الدَّاخليَّة، أمَّا القراءة الخارجيَّة، فيمكن القول فيها: إنَّ (الصَّفوة) عبارة عن هديَّة والتماس، سبب التَّوليف[1]، لأحد الوزراء، وهذا الأمر، عند القراءة، يقتضي المسامرة والمذاكرة وإمتاع الأوقات والمؤانسة بالبحث عن الحكمة وطرائفها والنُّكت ودُررها، ومحاسن الآداب وفوائدها، ولقد كان كتاب (الصَّفوة) كذلك، وكأنَّ القارئ يَقرأ فيه مستويات من التَّوجيه هدفها ظاهرًا شرح (دعاء السِّمات)، في هدف آخر هو الفائدة المعرفيَّة، وبابها القرآن الكريم، وما فيه من مضامين ومفاهيم صدَّرت معارفَ أُخَر، فكانت على منازل إدراكيَّة جماليَّة، ونقديَّة تفسيريَّة.

وأقول: إذا كان لكلِّ أمر تأثيثٍ خاتمةٌ، فقد كان في نفسه الكريمة أملٌ أن يعود

(١) قال: «وبعد، فقد أمرني الذي إذا ذكرت الألفاظ الروائع والعلماء البوارع والخطباء المصاقع... أنْ أنض [أسفر] قناع مشتبهات اللغات، وأنزع لفاع خفيَّات الإشارات عن الدعاء الملقَّب بـ(دعاء السمات) فلم استجز ردَّه، ولم أستطع صدَّه، فقابلت أمره بالسمع والطاعة...». صفوة الصفات: ٦٢-٦٤.

إلى شرحه (دعاء السِّمات) من جديد!. ترى ماذا كان يمكن أن يودعه، من كنوز ومعارف وموسوعات أُخَر غير ما ذكر، لو تسير له الأمور، وسنحت له الفرصة وعاد إليه من جديد في شرح أكبر، وكم كان في نفسه من شعور، وإحساس متلهِّف، عندما كان يقول: «إنَّ جميع حروف المعاني وكثير [كذا] من نكت المباني لم نتعرَّض لشرحه في هذه الرسالة تفصيًّا من الإسهاب والإطالة، فهي باقية على سكناتها مقرَّة على مكناتها، لكن إن وقفنا الله تعالى في مقام نسيئة الآجال، ووفَّقنا للقيام بصالح الأعمال شرحناه، إن شاء الله تعالى، شرحًا يعبق أنف اليراعة بنشر فوائده، وينطق لسان البراعة بذكر فرائده...»[1].

ولقد يجلو له من هذا العطاء المعرفيّ الواسع والعميق، على سببٍ يقع فيه؛ ليقدِّم اعتذارًا؛ تواضعًا، يقول فيه، ولله درُّه: «والمسئول [كذا] من خلان الصّفان وأخدان الوفا إن وأوا موجبة سهو سرُّوها، أو جارية عيب غفروها، أو هفوة لسان سدَّدوها أو سهوة بيان أرشدوها، فتلك عادة خلصاء الـمِقَة، وأصفياء الثِّقة»[2].

أقول: إنَّها نظرة ثاقبة من عالم لنصّ؛ بوصفٍ كُلِّيّ: جامعة معارف، حاز من نفسه مكانة كبيرة، وأقرَّت له ثقافته الواسعة فيه مشاريعَ فكر، ونحوًا من قراءات، تغترف أصولها من مرجعيَّات معرفيَّة، تعدَّدت مشاربها ومذاهبها، وتنوَّعت منابعها وألوانها، فغدت نتائج وأهدافًا في اختيارها (صفوة).

(١) صفوة الصِّفات: ٤٦٤.

(٢) المصدر نفسه: ٤٦٥.

المحور الأوَّل

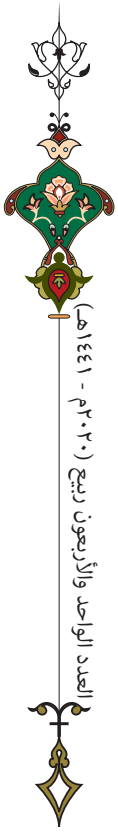

الأثر القرآنيّ في توجيه النَّصِّ الدُّعائيّ

في البيان وتعدُّديَّة الاحتمال النَّصِّيّ الدَّلاليّ

مرجعيَّة النَّصِّيّ القرآنيّ بين البيان وإشكاليَّات الاحتمال

بدهي أن تكوَّنت شرائع البيان: آليَّاته وأساليبه من المرسلة الخطابيَّة/ النَّصِّيَّة نفسها؛ ابتداءً، وأقصد بذلك خزائن المقولات ومستودعات النَّظر الماقبلي، وإذا كانت هذه الماقبليَّات (الميتابيان) هي عبارة عن توصيفٍ لاستنباطٍ مخصوص بالنَّظر والممارسة في المنظومة البيانيَّة واستراتيجيَّاتها، فهل ثمَّة مفارقة بينهما وبين البيان نفسه؟ أو بعبارة أخرى: إذا كانت هذه الآليَّات والوسائل التي تقوم مقام المسلَّمات والضَّرورات الأولى دعوةً إلى الكشف والإظهار الإبلاغيّ، فهل ثمَّة غموض وخفاء في نصِّ البيان، لكي يحتاج إلى قراءة إيضاح احتملت حتَّى اتُّخِذَت موضوعاتها الهرمنيوطيقيَّة في دراسة آداب المعارف القرآنيَّة عنونةً من الثِّنائيَّات والثُّلاثيَّات، أعني: أمثلة التَّفسير والتَّأويل، وقراءة الفهم، وفهم الفهم على عموم توصيفها الابستمولوجيّ[1]؟!.

(١) ليس غرضي في هذا المطلب بيان سنة المعارف التي مثَّل لها علماء الدَّرس القرآنيّ، وما أكثرها ناهيك بثقافاتها وتعدُّدية قراءاتها ومرجعيَّاتها، بل الغرض توصيف بعض ما هو مطروح في النَّظر من الإشكاليَّة التي تتحدَّث عن كيفيَّة الإجراء البيانيّ لبيان النَّصِّ القرآنيّ.

لقد كشف القرآن الكريم عن دائرة البيان الدَّلاليّ عندما اتَّخذ منها منهجًا ووسيلة في الإظهار، وليس ذلك فحسب، بل رسم خصائصها السِّياقيَّة وحدَّد مشخِّصاتها الإبلاغيَّة[1] من تمثيل شبكة لسانيَّاته المقدَّسة، في ثلاث دعائم، قال تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[2]، مختومة بقاعدة تخاطبيَّة عامَّة هي الفهم والإفهام، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[3]. وصارت- أي: هذه الدَّائرة البيانيَّة التَّخاطبيَّة- محاورها ومستوياتها المعرفيَّة والجماليَّة والفنيَّة عندما تنفذ فيه، وكلُّ مسافات الإبداع البلاغيّ ومساقاته- سبيلًا يجري قياسُهُ على رسومات القرآن الكريم وقوانينه في التَّعبير والأساليب والتَّفاضل الدَّلاليّ، بل أصبح ميزان البيان نفسه مجرى يجري عليه كلُّ وصفٍ اشتُقَّ من القرآن الكريم، أو بُنِيَ عليه، قال تعالى: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[4].

وعلى خُطى البيان القرآنيّ إفصاح الحديث الشَّريف لما يوازي ذلك من معنى وهدف وغاية، فالنَّبي الأعظم صلى الله عليه وآله يلفت أنظار النَّاس إلى هداية القرآن الكريم والرجوع

(١) يمكن مقاربة ما عُقِدَ في الدَّرس اللِّسانيّ الحديث، ومحاور المثاقفة الأدبيَّة والدِّراسات القرآنيَّة من معالجات في نظريَّة السِّياق سننها ووظائفها وعلاقات التَّفاعل السياقيّ، وحملها على برهانيَّة النَّصِّ القرآنيّ. مثلًا: علم اللغة العام، دي سوسور: ٢٩-٣٠، وقضايا الشعريَّة، رومان ياكوبسن: ٢٧، ونظريَّة والتَّأويل، بول ريكور: ٦٠، والقاموس الموسوعيّ الجديد لعلوم اللسان، أوزوالد ديكرو: ٦٧٧، ومدخل إلى علم النصِّ، زتسيسلاف واورزنياك: ٨٣، والمنحى الوظيفيّ في الفكر اللغويّ العربيّ، أحمد المتوكِّل: ٢٨، و٤١-٤٢، والدلالة والنَّحو، صلاح الدين صالح حسنين: ١٩٠، ودينامية النَّصِّ، محمَّد مفتاح: ١٩٣، والعبارة والإشارة، محمَّد العبد: ٩، والنَّظريَّة البنائيَّة، صلاح فضل: ٣٨٣، ومفهوم النَّصِّ القرآنيّ، نصر حامد أبو زيد: ٥٥.

(٢) سورة الرحمن، الآيات: ٢-٤.

(٣) سورة إبراهيم، من الآية: ٤.

(٤) سورة هود، الآية: ١.

إلى مواثيق بيانه عند التباس الفتن، قال عليه السلام: «فَإِذَا الْتَبَسَتْ عَلَيْكُمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، وَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ، وَهُوَ الدَّلِيلُ يَدُلُّ عَلَى خَيْرِ سَبِيلٍ، وَهُوَ كِتَابٌ فِيهِ تَفْصِيلٌ، وَبَيَانٌ، وَتَحْصِيلٌ...»[1].

ومثله مضمونًا متناصًّا ما في كلام أمير المؤمنين من وصفٍ بهدفٍ، قال عليه السلام: «كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِي اللهِ، وَلَا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللهِ...»[2].

إنَّها دساتير واستراتيجيَّات وصفيَّة لمنظومة البيان القرآنيّ وما في مرجعيَّاته العليا، إجمالًا وتفصيلًا، تستند فلسفتها الكبرى إلى مكنون وصف القرآن الكريم نفسه، عندما اتَّخذ من نفسه معيارًا في وصف نفسه في التَّفسير والتِّبيان، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[3]. قال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[4].

ولهذا كان السَّيِّد الطباطبائي قدس سره يُنكر على مَن يرى غير ذلك؛ ويحدِّد منهجيَّة في الميزان تستند إلى رؤاها إلى قواعد القرآن الكريم نفسه، يقول فيها: «حاشا أن يكون القرآن تبيانًا لكلِّ شيءٍ، ولا يكون تبيانًا لنفسه، وقال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[5]. الآية، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[6] الآية. وكيف يكون القرآن هدًى وبيِّنةً وفرقانًا ونورًا مبينًا للناس في جميع ما يحتاجون،

(١) الكافي، الأصول: ٤/ ٥٩٥. رقم ح (٣٤٧٤/ ٢).
(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٨/ ٢٩٥.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣٣.
(٤) سورة النحل، من الآية: ٨٩.
(٥) سورة البقرة، من الآية: ١٨٥.
(٦) سورة النساء، من الآية: ١٧٤.

ولا يكفيهم في احتياجهم إليه، وهو أشدُّ الاحتياج!. وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾[1] الآيـة. وأيُّ جهـادٍ أعظم من بذل الجهد في فهم كتابه! وأيُّ سـبيلٍ أهدى إليه من القرآن!»[2].

أقـول: إذا كان أمـر البيـان القـرآنيّ نصًّا كذلك تصـوُّرًا، فكيف يمكـن أن نوافق بـين منهج «تفسـير القرآن بالقرآن»، بوصفه النِّهائيّ المسـتنبط من كونه «أحسـن طرق التَّفسـير»، بل «أهمِّ أصوله»، في نصٍّ مدوَّنة علوم القرآن: «أَحْسَـنُ طَرِيقِ التَّفْسِـيرِ أَنْ يُفَـسَّرَ الْقُـرْآنُ بِالْقُرْآنِ، فَمَا أُجْمِـلَ فِي مَكَانٍ، فَقَدْ فُصِّـلَ فِي مَوْضِعٍ آخَـرَ، وَمَا اخْتُصِرَ فِي مَـكَانٍ، فَإِنَّهُ قَدْ بُسِـطَ فِي آخَرَ...»[3]. ونـصُّ مقولة: «إِنَّ الْقُرْآنَ حَمَّـالٌ ذُو وُجُوهٍ، تَقُولُ وَيَقُولُونَ...»[4].

(١) سورة العنكبوت، من الآية: ٦٩.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ١٤.

(٣) البرهـان في علـوم القرآن، الزركـشّي: ٢/ ١١٣. وينظر: مقدِّمة في أصول التفسـير، ابن تيمية: ٩٣، والاتقـان في علوم القرآن، السـيوطيّ: ٤/ ١٦٢، والزيادة والإحسـان، ابـن عقيلة المكِّيّ: ٧/ ٤١٠، والتمهيد في علوم القرآن، محمد هادي معرفة: ١٠/ ٢٣.

(٤) النَّـصُّ (من وصيَّة لهعليه السلام لعبد الله بن العبَّاس... لـمَّا بعثـه للاحتجاج على الخوارج)، وتمامه: «لَا تُخَاصِمْهُـمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوهٍ، تَقُولُ وَيَقُولُونَ... وَلَكِنْ حَاجِجْهُمْ بِالسُّـنَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصًا». شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٨/ ٧٤.

قال ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ) [في المصدر نفسه: ١٨/ ٧٤-٧٥] شارحًا معنى الوصيَّة: «هذا الكلام لا نظير له في شرفه وعلوِّ معناه، وذلك أنَّ القرآن كثير الاشتباه فيه مواضع يظنُّ في الظَّاهر أنَّهـا متناقضة متنافية، نحو قوله: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [سـورة الأنعام، من الآية: ١٠٣]، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [سـورة القيامة، الآية: ٢٣]، ونحو قوله: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ [سـورة يـس، الآيـة: ٩]، وقولـه: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ [سـورة فصِّلـت، من الآية: ١٧]، ونحـو ذلك، وهو كثير جدًا، وأمَّا السـنة، فليسـت كذلك، وذلك لأنَّ الصحابة كانت تسأل رسول اللهصلى الله عليه وآله وتستوضح منه الأحكام في الوقائع، وما عساه يشتبه عليهم من كلامهم يراجعونه فيه، ولم يكونوا يراجعونه=

يبدو أنَّ مقولة التِّبيان القرآنيّ مسورة بوجوب مفاتيحها[1]؛ بدليل من فحوى قوله

=في القرآن إلَّا فيما قلَّ، بل كانوا يأخذونه منه تلقُّفًا، وأكثرهم لا يفهم معناه، لا لأنَّه غير مفهوم، بل لأنَّهم ما كانوا يتعاطون فهمه، إمَّا إجلالًا له، أو لرسول الله أن يسألوه عنه، أو يجرونه مجرى الأسماء الشريفة التي إنَّما يُراد منها بركتها لا الإحاطة بمعناها، فلذلك كثر الاختلاف في القرآن...».

وفي حديث يورده السيوطي (ت ٩١١هـ) [في الاتقان في علوم القرآن: ٤/ ١٧١-١٧٢] قال: (في الحديث) «القرآن ذَلُولٌ ذو وجوه، فاحملوه على أحسن وجوهه...». قال: «وقوله: (ذو وجوه) يحتمل معنَيين: أحدهما: أنَّ من ألفاظه ما يحتمل وجوهًا من التأويل. والثاني: أنَّه قد جمع وجوهًا من الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب والتحليل والتحريم. وقوله: «فاحملوه على أحسن وجوهه» يحتمل معنَيين: أحدهما: الحمل على أحسن معانيه. والثاني: أحسن ما فيه من العزائم دون الرُّخَص، والعفو دون الانتقام، وفيه دلالة ظاهرة على جواز الاستنباط والاجتهاد في كتاب الله تعالى».

(١) أقول: قد نجد في المدوَّنة التفسيريَّة ومقدِّماتها جوابًا يعالج مسألة ما يطرأ على البيان القرآنيّ من تساؤلات ويكشف عن إشكالياتها، وهذا ما نلحظه واضحًا في قول الراغب الاصفهاني [في مقدِّمة جامع التفاسير: ٤٥-٤٦ في (فصل في كيفيَّة بيان القرآن)]، قال: «اعترض بعض الناس، فقال: كيف وصُفَ القرآن بالبيان، فقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية: ١٣٨]، وقال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [سورة النساء، من الآية: ١٧٦] وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [سورة الشعراء،الآية: ١٩٥]، وقال ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [سورة النور، من الأية: ٣٤]، وقد علُم ما فيه من الإشكال والمتشابه، وما يجري مجرى الرموز... وقد وصفه تعالى بالمتشابه، وبأنَّه لا يعلم تأويله إلَّا هو؟، فالجواب: إنَّ البيان المشترط فيه إنَّما هو بالإضافة إلى أعيان أرباب أهل الكتاب، لا إلى كلِّ من يسمعه ممَّن دبَّ ودرج، فقد علمنا أنَّ ذلك ليس ببيان لمن ليس من أهل العربيَّة. ثُمَّ أحوال أهل العربيَّة مختلفة في معرفته. ولو كان البيان لا يكون بيانًا حتَّى يعرفه العامَّة، لأدَّى إلى أن يكون البيان في الكلام السوقي العامِّيّ، أو إلى أن لا يكون بيانًا بوجه، إذ كلّ كلام بالإضافة إلى قوم بيان، وبالإضافة إلى آخرين ليس ببيان... ثُمَّ إنَّ القرآن، وإن كان في الحقيقة هداية للبريَّة، فإنَّهم لن يتساووا في معرفته، وإنَّما يحيطون به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم. فالبلغاء تعرف من فصاحته، والفقهاء من أحكامه، والمتكلِّمون من براهينه العقليَّة، وأهل الآثار من قصصه ما يجهله غير المختصِّ بفنِّه، وقد عُلِمَ انَّ الإنسان بقدر ما يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه، وعلى ذلك أخبار=

تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1]، وهو أمر إنَّما تعكسه الممارسة التَّفسيريَّة وفاعليَّاتها الإجرائيَّة، وهذه إنَّما تتأتَّى بفاعلٍ نافذ، وما يحتاج إليه كاشف النَّصِّ من أدوات وآليَّاته ومواهب، تعتمل متفاعلة على تحريك مرجعيَّات؛ لإدراك معلومات أُخُر، ولعلَّ مقولة منهج «تفسير القرآن بالقرآن»، وتوصيفه بكونه «حمَّال ذو وجوه»، ليس فيهما- بتصوُّري اليسير- تباعدٌ بقدر ما فيهما من إدراك معرفيّ سابق، فما الأخيرة إلَّا تهذيب لما في الأولى من حركة معرفيَّة، قد يذهب بها التَّأويل إلى غير وجهتها في كشف المراد النَّصِّيّ حين التَّفسير فالتَّعيين.

والبرهان على ذلك ما في المقولتَين من سبب، صحيح أنَّ إحداهما انفردت بشيءٍ تميَّزت به الأخرى مباعدةً من جهة دون الجهات، ولكن صحيح أيضًا أنَّهما اشتركتا في موارد أخرى من البيان النَّصِّيّ، فالأولى مثلًا، انفردت في القرآن الكريم نفسه، عندما اكتملت في تمام قول: «فَمَا أُجْمِلَ فِي مَكَانٍ، فَقَدْ فُصِّلَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمَا اخْتُصِرَ فِي مَكَانٍ، فَإِنَّهُ قَدْ بُسِطَ فِي آخَرَ...».

وهذا، بلا ريبٍ، إنَّما يحتاج إلى معرفةٍ كاملةٍ واتقانٍ تامٍّ في موسوعة معارف النَّصِّ القرآنيّ[2]، من أوَّله إلى آخره بداهةً، وما أشبهه بـ«علوم

=النبيّ ﷺ، ولهذا قال ﷺ: «نَضَّرَ الله أمْرءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا كَمَا سَمِعَهَا حَتَّى يُؤدِيها إلى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوْعَى مِنْ سَامِعٍ». وينظر: التَّمهيد في علوم القرآن، محمَّد هادي معرفة: ٩/ ١٨.

(١) سورة محمَّد، الآية: ٢٤.

(٢) ليس من الغريب، أن تضع المدوَّنة العلميَّة لعلوم القرآن، قانونًا يقتضي فيه أن يكون المفسِّر على صفة ما من امتلاك الأدوات المعرفيَّة والإستراتيجيَّات المنهجيَّة، حين الممارسة التَّفسيريَّة وكشف مراد النَّصِّ القرآنيّ: بيانه وتعيين مقاصده، وإلَّا لماذا هذا التَّشديد في توثيق هذه المكوِّنات المعرفيَّة ومراجعتها، والمستويات المعارفيَّة وتكوين ثقافاتها، في نسبة الإنسان إلى صفة المفسِّر الذي يحاول أن يكشف معنى المراد الإلهيّ، حتَّى كأنَّها صفات ومؤهِّلات تنزل المفسِّر منزلة كبيرة تقترب من=

المناسبات»[1]، حتَّى تبدو كأنَّها هي ومقولة «تفسير القرآن بالقرآن»، وما فيه من توصيف: استيضاح معنى الآية من نظيراتها بالتدبُّر المندوب إليه في نفس القرآن[2] الكريم، أو «أن تكون النُّصوص القرآنيَّة بضعها مفسِّرًا للبعض...». أي: أن «يكون النَّصُّ القرآنيّ المراد كشف معانيه منكشفًا ومفسَّرًا- بصيغة اسم المفعول- بنصٍّ قرآنيٍّ آخر»[3] على سياق معرفيّ واحد. وهل يتأتَّى ذلك على أيّ أحدٍ؛ كي يكون التَّفسيرُ له متاحًا، ويكون له القرآن الكريم له تبيانًا لكلِّ شيء من غير سؤال إلَّا مَن خوطب به[4]!!.

وأمَّا اشتراكهما، ففي تمام نصيهما وما في شروط كلٍّ منهما في منازل التَّوصيف، وذلك في (النَّصِّ الشَّارح) الآخر وإجراءات التَّخاطب الحجاجيّ، وهو (السُّنَّة) المباركة، فالمقولة الأولى في قول: «فَإِنْ أَعْيَاكَ ذَلِكَ [أي تفسير القرآن بالقرآن]، فَعَلَيْكَ بِالسُّنَّةِ، فَإِنَّهَا شَارِحَةٌ لِلْقُرْآنِ وَمُوَضِّحَةٌ له... وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآله] وَسَلَّمَ:

=مقولة العصمة. ينظر في هذه الآداب والضَّوابط وما يحتاج إليه المفسِّر من علوم وأدوات: مقدِّمة جامع التَّفاسير، الراغب الأصفهانيّ: ٩٤، والبرهان في علوم القرآن، الزركشيّ: ٢/ ١١٣-١١٤، والإتقان في علوم القرآن، السيوطيّ: ٤/ ١٧٣.

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشيّ: ١/ ٤١، ومعترك الأقران، السيوطيّ: ١/ ٤٤.

(٢) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ١/ ١٤.

(٣) منطق فهم القرآن، كمال الحيدريّ: ١/ ٤٩. وينظر: دروس تمهيديَّة في القواعد التَّفسيريَّة، عليّ أكبر المازندرانيّ: ١/ ١١١، والميزان في تفسير القرآن، مقدِّمة جوادي آملي: ١٢٣.

(٤) عن هذه الرواية أتحدَّثُ وأقتنصُ منهجًا للسؤال لمن يريد معرفةً مِن ذي علم، «عَنِ الْأَصْبَغِ بْنِ نُبَاتَةَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فِي حَدِيثٍ أَنَّهُ قَالَ: **وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله بِالْحَقِّ، وَأَكْرَمَ أَهْلَ بَيْتِهِ، مَا مِنْ شَيْءٍ يَطْلُبُونَهُ إِلَّا وَهُوَ فِي الْقُرْآنِ، فَمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ فَلْيَسْأَلْنِي عَنْهُ...**». في وسائل الشيعة: ١١/ ٤٢٠. رقم ح (١٥١٥٣/ ١)، وفي المصدر نفسه: ٢٧/ ١٨٣، رقم ح (٣٣٥٥١/ ٢٠). وكذا رواية الكافي: «عَنْ أَبِي الْجَارُودِ قَالَ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: **إِذَا حَدَّثْتُكُمْ بِشَيْءٍ، فَاسْأَلُونِي مِنْ كِتَابِ اللهِ**». في الكافي، الأصول: ١/ ١٥٢، رقم ح (١٨٧/ ٥).

«أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»، يَعْنِي: السُّـنَّةَ، فَإِنْ لَمْ يُوجَدْ فِي السُّـنَّةِ يُرْجَعْ إِلَى أَقْوَالِ الصَّحَابَـةِ، فَإِنَّهُمْ أَدْرَى بِذَلِكَ، لِـمَا شَـاهَدُوهُ مِـنَ الْقَرَائِنِ، وَلِـمَا أَعْطَاهُـمُ اللهُ مِنَ الْفَهْمِ الْعَجِيبِ، فَإِنْ لَمْ يُوجَدْ ذَلِكَ يُرْجَعْ إِلَى النظر والاستنباط بالشَّرط السَّابق»[1].

وأمَّـا مقولة النَّـصِّ الثاني، ففي قول معلِّـل يخرج بعلَّته إلى محلِّ (افتراض مسـبق) متعارف بلا إشكال: «وَلَكِنْ حَاجِجْهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصًا».

لقد خطَّت فاعليَّة البيان القرآنيّ لنفسها إذن، منهجًا خاصًّا بالإدراك في كشف مراد النَّـصِّ، وهو منهج إنَّـما يتقوَّم مداره على مرجعيَّة الإدراك الـكُلِّيّ لخصوصيَّات معارف النَّصِّ القرآنيّ بداهةً، فضلًا عن الأدلَّاء عليه، وهم مصاديق قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡـلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[3].

ولعلَّ في الرِّوايات منطقًا يوضِّح ما لهذا التَّوصيف الابتدائيّ من غرض وغاية:

فـ«عَنْ بُرَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ قَـالَ قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِـيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[4]، قَـالَ: إِيَّانَا عَنَى، وَعَلِيٌّ أَوَّلُنَا وَأَفْضَلُنَا وَخَيْرُنَا بَعْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله»[5].

و«عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُـلَيْمَانَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ سَـدِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام- فِي حَدِيثٍ- قَالَ: عِلْمُ الْكِتَابِ كُلُّهُ-وَاللهِ- عِنْدَنَا، عِلْمُ الْكِتَابِ كُلُّهُ- وَاللهِ-عِنْدَنَا»[6].

وقـد يُشـكِل من ذلـك ما في توصيفـه من بيان لأحدهـم، كما في هاتَـين الروايَتَين التاليَتَـين، التـي تـدلُّ إحداهما على مـا يجب أن يكـون عليه التَّسـلُّح في ميـدان معرفيّ

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشّي: ٢/ ١١٣.
(٢) سورة النحل، من الآية: ٤٣.
(٣) سورة الرعد، من الآية: ٤٣.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٤٣.
(٥) في وسائل الشيعة: ٢٧/ ١٨١، رقم ح (٣٣٥٤٦/ ١٥).
(٦) في المصدر نفسه: ٢٧/ ١٨١، رقم (٣٣٥٤٧/ ١٦).

يقتضي الاحتراز فيه عن الوقوع في المنزلق أو الخطأ عند تعيين المراد القصديّ في النَّصِّ، والأخرى تلتزم سياق الدَّليل على معنى النَّصِّ ببرهان من الكتاب نفسه، من عارف فيه، بل كشَّاف لمعناه ودلالاته، ومقاصده وسننه ومنازله، وهو، بلا جدل، المعصوم:

«إِيَّاكَ وَإِيَّاكَ وَتِلَاوَةَ الْقُرْآنِ بِرَأْيِكَ، فَإِنَّ النَّاسَ غَيْرُ مُشْتَرَكِينَ فِي عِلْمِهِ كَاشْتِرَاكِهِمْ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْأُمُورِ، وَلَا قَادِرِينَ عَلَى تَأْوِيلِهِ، إِلَّا مِنْ حَدِّهِ وَبَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لَهُ، فَافْهَمْ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَاطْلُبِ الْأَمْرَ مِنْ مَكَانِهِ تَجِدْهُ، إِنْ شَاءَ اللهُ»[1].

و«عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ: لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا مَعْرُوفٌ، قَالَ: لَيْسَ هَكَذَا قُلْتُ، إِنَّمَا قُلْتُ: لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا عَلَيْهِ دَلِيلٌ نَاطِقٌ عَنِ اللهِ فِي كِتَابِهِ، مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ - إِلَى أَنْ قَالَ: إِنَّ لِلْقُرْآنِ ظَاهِرًا، وَبَاطِنًا، وَمَعَانِيَ، وَنَاسِخًا، وَمَنْسُوخًا، وَمُحْكَمًا، وَمُتَشَابِهًا، وَسُنَنًا، وَأَمْثَالًا، وَفَصْلًا، وَوَصْلًا، وَأَحْرُفًا، وَتَصْرِيفًا، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْكِتَابَ مُبْهَمٌ، فَقَدْ هَلَكَ وَأَهْلَكَ»[2].

يمكن قول: إنَّ منظومة خطاب البيان القرآنيّ انتجت لنفسها بالتَّوجيه مستويَين رئيسَين في الممارسة التَّفسيريَّة وإيضاح المراد من النَّصِّ القرآنيّ، قاعدتها الأصوليَّة تقرِّر امتياز «شرطه وشروطه»، أو «حدّه وبابه»؛ أمَّا المستوى الأوَّل، فالقرآن الكريم نفسه، بوصفه مفسِّرًا ومبيِّنًا لنفسه، لا بنفسه، إنَّه كُوَّة عُظمى تتحرَّك بفاعليَّة التَّبليغ، ومقولته الكبرى: «تفسير القرآن بالقرآن»، وهذا إنَّما يؤدِّي فاعليته الإجرائيَّة، وما في ميدانه

(١) في وسائل الشيعة: ٢٧/ ١٩١، رقم ح (٣٣٥٦٩/ ٣٨).

(٢) في المصدر نفسه: ٢٧/ ١٩٢، رقم ح (٣٣٥٧٠/ ٣٩). ومثله: «عَنْ عُمَرَ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَمْ يَدَعْ شَيْئًا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ إِلَّا أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبَيَّنَهُ لِرَسُولِهِ صلى الله عليه وآله، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدًّا، وَجَعَلَ عَلَيْهِ دَلِيلًا يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ عَلَى مَنْ تَعَدَّى ذَلِكَ الْحَدَّ حَدًّا». في الكافي، الأصول: ١/ ١٥٠. رقم ح (١٨٤/ ٢).

مـن المعاني والـدَّلالات القطعيَّة وحيثياتها التَّأويليَّة-الدَّليلُ عليـه، وهو المعصوم عينه، فهو تَرجُمان القرآن[1]، وهو أدرى به من غيره؛ لإحاطته المعرفيَّة الشَّـموليَّة التي تسـتقّي أصولها من «العلم اللدُنِّي»، وهو شأنٌ خاصٌّ بتأييد السَّماء.

وأمَّا المسـتوى الثـاني، فثقافة الأصـول المعرفيَّة المكتسـبة من المعارف والوسـائل والآليَّـات التـي قنَّنتها عقليَّـات الميتاتفسـيريَّة، وقعَّدتها العلوم المسـتوحاة مـن النَّصِّ القـرآنيّ، ومـا فيها من مبادئ ومعالم كاشـفة عنه، مبيِّنة له، وهو أمـر متاح لأيٍّ قاصدٍ، قراءةً وتعمُّقًا وقدرةً واجتهادًا، على أنَّ رحيقَها يبقى مع طبيعة المعرفة نفسـها ومراحلها الثَّقافيَّـة التَّطوُّريَّـة والتَّجديديَّة، التي في إشـارات النَّـصِّ القرآن الكريـم ورموزه، ثُمَّ الزَّمن، وما يحتاج إليه الإنسـان في تكامله وإرشـاده؛ لأنَّ الخطـاب القرآنيّ يجري مجرى الشَّمس والقمر[2].

وهل شـكَّل هـذا الأخير مـن حركة هـذه الأدوات والوسـائل المعرفيَّـة اختلافًا في المنهـج والرؤيـة والتَّفكـير؟!، يبدو أنَّ الإيجـاب صريح؛ وذلك لاختلاف التَّفسـير ومناهجـه المتعدِّدة في فهـم المراد القصديّ للقـرآن الكريم وكشـف أسراره ودلالاته، قربًا وبعدًا ونسـبةً، ناهيك بالتَّأويل ومسـتوياته العميقة ودوائره الواسـعة. ولكن هل من سـبيل دونه؟!، وما سـمات هذا البديـل وكيفياته الإجرائيَّـة، إن وُجِدَ؟!. قد تكون قراءة المشـهود المعرفيّ شاهدًا نسقيًا على تكوين نفسها، فالمعنى النَّصِّيّ في القرآن ومحاولة

(١) بهـذا المحـلِّ، ندرك كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين قال: «**إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْـطُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لَا يَنْطِقُ بِلِسَـانٍ، وَلَا بُدَّ لَـهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَـالُ...**». شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٨/ ١١٢. وقوله عليه السلام: فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ، حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ، وَارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ، أَتَمَّ نُورَهُ وَأَكْرَمَ بِهِ دِينَهُ...». المصدر نفسه: ١٠/ ١٢٧.

(٢) عـن رواية [في بحار الأنوار: ٣٥/ ٤٠٤]: «قـال أبو عبد الله عليه السلام: «**إنَّ القرآن حيٌّ لم يمت، وإنَّه يجـري كما يجري الليـل والنَّهار، وكما يجري الشَّـمس والقمر، ويجري عـلى آخرنا كما يجري على أوَّلنا**».

كشفه وتفسيره، يحتاج إلى ممارسات وقراءات متراكمة، لا تشتغل في مجال دون آخر، إنَّه عالم تطوف فيه عوالم، ولكلٍّ تكوينه وخصائصه وسماته البيانيَّة، التي يقع بعضها تحت النَّظر، وبعضها الآخر في علمه سبحانه وتعالى، وما يكشفه المعصوم..

وتبقى الدَّعوة إلى أنساق المعرفة قائمة من نفسه- القرآن الكريم- في التَّدبُّر، قانونها الأوَّل (اقرأ)، وهدفها الغائيّ الفهم، وعلى العمليَّة التَّفسيريَّة أن تُحسن ممارستها بإحكام آليَّاتها وأدواتها ووسائلها؛ إنَّه بحْثٌ عن مُراد إلهيّ، ومعنى لا نهائيّ مُقدَّس.

جدل المعنى واستراتيجيَّات التَّشخيص / التَّعيين الدَّلاليّ

منطق الاحتمال الدَّلاليّ، نحو تعدُّديَّة المعاني الإفراديَّة في النَّصّ القرآنيّ- الدُّعائيّ

لعلَّ منطق الأبجديَّة البيانيَّة المتقدِّمة تجري على خصائص النَّصِّ الدُّعائيّ (دعاء السِّمات) وما في مفرداته من الاحتمالات الدَّلاليَّة أيضًا، فإذا كانت من سمات النَّصِّ الدُّعائيّ احتواؤه على مفاهيم وموضوعات عقديَّة عباديَّة، ناهيك بالتَّداخل النَّصِّي، فإنَّه، بلا شكٍ، يندرج بضمن مناطق حدودها لا تتجاوز دائرتَي المحكم والمتشابه، أو ثنائيَّات الدَّلالة من العموم والخصوص، والإجمال والتَّفصيل، وقد رصد الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله من الاحتمال الدَّلاليّ في النَّصِّ الدُّعائيّ، ماهويَّته كذلك في النَّصِّ القرآنيّ، ليس على مستوى واحد فحسب، بل على مستويات سياقيَّة متعدِّدة. وكان المتوقَّع أن يكون الابتعاد عن هذا التَّوصيف، واللجوء إلى منطق القطع في الدَّلالة والمراد القصديّ النَّصّ؛ لأنَّه المرجوّ في البيان والتَّوضيح وأساسيَّات مقولات الشَّرح والتَّفسير! ولكن نجد العكس من ذلك، فما الدافع المعرفيّ واعتماد هذا الإجراء؟!.

أقول: قبل أن نلمح بعضًا من إجابةٍ، ثمَّة ما يدفعني إلى إشكاليَّة الاحتمال والاشتراك الدَّلاليّ في النَّصِّ، وقراءتها في تساؤلات: ألم تكن مباني التَّركيب والنَّظم السِّياقيّ، وما فيها من قدرة افتراضيَّة كفيلًا لنفي الاحتمال الدَّلاليّ والموضوعيّ في النَّصِّ، وهي

المعيار والقانون الأمثل في الدَّلالة ونظرياتها، ولاسيما (الرَّصف)[1]، و(الوقف)[2]؟!، ما الذي يجعل هذه الكلمة/ المفردة دون سواها تستعصي على الإمساك، وتنفتح على مصارع الاحتمال، حتَّى كأنَّها رمز أو شفرة، لا يمكن صيدها في أيّ شبكة؟!، وما بال قوالب النُّصوص الامتيازيَّة تُظهر تقديرًا للمعاني والمقاصد، فلا تتقيَّد بجهة دلاليَّة دون أخرى على الرّغم من خيارات اللُّغة، ولاسيما إمكاناتها المعجميَّة على المستوى الرأسيّ، الأمر الذي يجعل منها محطَّ عناية، واجتهاد في النَّظر والتَّوجيه، بل تستلزم مقاييس عالية في الكشف والبيان والتَّفسير، إغفالها يشكِّل نقصًا؟!.

يبدو أنَّ التَّصوُّر داع إلى إدراكين، لعلَّ أحدهما يُشتق منه الآخر، فأمَّا الأوَّل، فيمكن القول فيه: إنَّ منطق/ مقولات الاحتمال في التَّوجيه مرجعه جدليَّة توافر/ انعدام القرائن أو الأدلّة الكاشفة على الاختيار لمعنى دون سواه، فضلًا عن انفتاح النَّصِّ الدَّلائلي نفسه على المعاني.

وأمَّا الثاني، فإنَّ منطق القراءة وخصوصياتها؛ يحتاج إلى كثير من الاستدعاء لسياقات النَّصّ الغائبة عنه، وملء فراغاته العميقة، فالنَّصُّ، بلا شكٍّ، حين تواجهه القراءة، يكون على مفترق طرق، واختلاف شرائع؛ لأنَّه سيكون حضورًا بغيابٍ تخاطبيّ، ولا يمكن لأحدٍ حينئذٍ أن يدَّعي «امتلاك النَّصّ»[3]، دون مقولاته الانتاجيَّة

(١) ينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر: ٧٤.

(٢) ينظر: اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز: ٩٤.

(٣) مدخل إلى علم النَّصّ، زتسيسلاف واورزنياك: ٨٣. وينظر: الذات بين الضوء والمصباح: ٥١. أقول: في إجابة الزركشيّ عن علة الاحتياج إلى التفسير كثيرٌ من مقاربة لما نحن فيه، قال [في البرهان في علوم القرآن: ١/ ٢٨]: «إنَّ القرآن إنَّما أنزل بلسان عربيّ مبين في زمن أفصح العرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، أمَّا دقائق باطنه فإنَّما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر، من سؤالهم النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [آله] وَسَلَّمَ في الأكثر... ولم ينقل إلينا عنهم تفسير القرآن وتأويله بجملته، فنحن نحتاج إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة على ما لم يكونوا محتاجين إليه من أحكام=

والقراءات النِّسبيَّة والتَّأويليَّة.

ولهـذا أجرى الشَّـيخ الكفعميّ رحمه الله من أنسـاق هذه الاحتـمالات وجوهًا رأى فيها جمال اختيار وتعيين، فرصد امتيازها في الإرسال، فما كان من الاحتمال المعنويّ في النَّصِّ الدُّعائـيّ مفردةً، أو موضوعًا، انعكس عليه توصيف النَّـصِّ القرآنيّ كذلك، والعكس صحيح، حتَّى كأنَّه يُلمح إلى أنَّ الأنسـاق واحدة، بل إجازة هذا؛ لوجود ذلك في سياق أكبر منه امتيازًا، وهو كثير في (الصَّفوة).

فمـن ذلك مثلًا ما رَصَـدهُ رحمه الله في توصيف موضوع الخطاب النَّـصِّيّ؛ لأنَّه في معنى مطلـق، لا يمكن أن يكون بجهة دلاليَّة واحدة دون أخرى، «قوله: (**اللَّـهُمَّ إِنِّي اَسْـأَلُكَ بِاسْمِكَ الْعَظِيمِ الْاَعْظَمِ الْاَعَزِّ الْاَجَلِّ الْاَكْرَمِ**)».

قال رحمه الله: «الاسـم الأعظـم فيه أقوال، قيـل:... إنَّـه في ثلاث سـور: في البقرة، آية الكـرسي، وفي آل عمـران: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[1]، وفي طـه: ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ ﴾[2]... مـا ذُكِرَ في كتاب التَّبديـل: إنَّه في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[3]، وقوله تعـالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[4]... ما ذُكِرَ في كتاب الدُّستور عن أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: إذا أردت أن تدعو الله

=الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلُّم، فنحن أشدُّ الناس احتياجًا إلى التفسير. ومعلـوم أنَّ تفسـيره يكون بعضـه من قبيل بسـط الألفاظ الوجيزة وكشـف معانيهـا، وبعضه مـن قبيل ترجيـح بعض الاحتمالات على بعـض، لبلاغته ولطف معانيه، ولهذا لا يسـتغني عن قانون عام يعوَّل في تفسـيره عليه، ويرجع في تفسيره إليه، من معرفة مفردات ألفاظه ومركَّباتها، وسياقه وظاهره وباطنه، وغير ذلك ممَّا لا يدخل تحت الوهم، ويدقُّ عنه الفهم». وينظر: المناهج التفسيريَّة، جعفر السبحانيّ: ١٣.

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١-٢.

(٢) سورة طه، من الآية: ١١١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٣.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ١-٢.

تعالى باسمه الاعظم فيُستجاب لك، فاقرأ من أوَّل سورة الحديد إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1]، وآخر الحشر من قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[2]... ما ذُكِرَ في كتاب فضل الدُّعاء عن الصَّادق عليه الصلاة والسلام: اقرأ الحمد، والتَّوحيد، وآية الكرسي، والقدر...»[3].

وبعد جملة من الأقوال، قال رحمه الله: «واعلم أنَّ الرِّوايات في الاسم الأعظم والأقوال فيه لا تكاد تنحصر في كتاب مصنّف، ولا مجموع مؤلَّف...»[4].

يمكن أن نساير مقولة الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله: «إنَّ الاسم الأعظم هو (الله)؛ لأنَّه أشهر أسمائه تعالى وأعلاها محلًّا في الذِّكر والدُّعاء...»[5]، وتأييده من مستندٍ آخر، قال رحمه الله: «قال صاحب العِدَّة: وهذا القول قريب جدًا؛ لأنَّ الوارد في هذا المعنى كثير»[6].

وأقول: ماذا علينا لو قلنا: إنَّه في كلِّ ما شيء، والدَّليل على ذلك ما في منطق الاحتمالات الموضوعيَّة وتعدُّديَّة تعانق الآيات والسّور القرآنيَّة في مجمع الذِّكر عند التَّوجُّه إليه تعالى شأنُه.

لقد أجرى الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله في هذه الفقرة من مرجعيَّة النَّصِّ القرآنيّ وثقافة الرواية وقراءة الدُّعاء أجرى مراصد للكشف عن الاحتمال الموضوعيّ في معنى الاسم الكريم، وبيان دلالته، ولا ريب في أنَّ ثمَّة إدراكًا مسبقًا من كون المسمَّى، ليس من الممكنات، بل هو العِلَّة الأولى، التي حارت في أوصافها العقول، وعجزت عن إدراكها فطن الظنون.

(١) سورة الحديد، من الآية: ٦.
(٢) سورة الحشر، من الآية: ٢١.
(٣) صفوة الصفات: ٧٧-٨٠.
(٤) المصدر نفسه: ٨٣.
(٥) المصدر نفسه: ٧٦.
(٦) المصدر نفسه: ٧٦.

ومن ذلك أيضًا في «قوله: (وَبِكَلِمَتِكَ الَّتي خَلَقْتَ بِهَا السَّماواتِ وَالْاَرْضَ)».

قال رحمه الله: «الكلمة ترد كناية عن معانٍ كثيرة، وقد تكرَّر في التَّنزيل ذكر الكلمة والكلمات لمعانٍ مختلفة، وكذا في هذا الدُّعاء، فقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[1]، أي: حجَّة ربِّك وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وقيل: هي القرآن. وقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾[2]، أي: ما أكبرها كلمة... والكلمة هي قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾[3]، سُمِّيت كلمة كما سُمِّيت القصيدة كلمة. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾[4]، يعني: الشِّرك، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾[5]، يعني: لا إله إلَّا الله. قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾[6]، يعني: وعدهم الساعة، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[7]... وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[8]. قال الهرويّ: كلُّما دعاء الله النَّاس إليه فهو كلمة. وقال الطبرسيّ: نفس الكلمة هنا هي قوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[9]... وقوله تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[10]، الكلمة الطيِّبة: التَّوحيد، وقيل: هي كلُّ كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتَّوبة. والشَّجرة الطَّيِّبة، هي:

(١) سورة الأنعام، من الآية: ١١٥.
(٢) سورة الكهف، من الآية: ٥.
(٣) سورة الكهف، من الآية: ٤.
(٤) سورة التوبة، من الآية: ٤٠.
(٥) سورة التوبة، من الآية: ٤٠.
(٦) سورة يونس، من الآية: ١٩.
(٧) سورة القمر، من الآية: ٤٦.
(٨) سورة آل عمران، من الآية: ٦٤.
(٩) سورة آل عمران، من الآية: ٦٤.
(١٠) سورة إبراهيم، من الآية: ٢٤.

كلمة شـجرة مثمرة طيبة الثِّمار... وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: شـجرة الجنَّة. وعن الباقر عليه الصَّلاة والسلام: الشَّجرة الطَّيّبة النَّبي صلى الله عليه وآله، وفرعها عليّ عليه الصلاة والسلام، وعنصر الشجرة فاطمة وثمرها أولادها وأغصانها وورقها شيعتنا. وقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾[1]... وقوله تعـالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾[2]، أي: فقام بهنَّ حقَّ القيام وأداهنَّ حقَّ التأدية من غير تفريطٍ وتقصيرٍ. والكلمات:... قيل: هي الإمامة التـي ذكرها في قوله تعـالى: ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾[3]... وقيل: هي ثلاثون خصلة من خصال شرائع الاسلام، في براءة: ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ﴾[4] الآية، وعشر في الأحزاب: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ ﴾[5] الآية، وعشر في المؤمنين، و﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ ﴾[6] إلى قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[7]... وقيل: هي مناسك الحج...»[8].

وهكذا يرصد الشَّـيخ رحمه الله الآياتِ والسُّور القرآنيَّة التي اشتملت على مفردة (الكلمة، والكلمات)، وموضوعاتها وتفسـيرها وتأويلها، يأتي عليها مفهرسًـا لمضامينها ودلالاتها الاحتماليَّة، والقادح الأوَّل كما تقدَّم هو ما ورد في (دعاء السِّمات) من إشارات ورموز.

إلى أن يقـول رحمه الله: موازنًا هذا الاحتمال الدَّلاليّ في النَّصِّ القرآنيّ وسـياقاته المتعدِّدة، بالاحتـمال الدَّلاليّ في النَّصِّ الدُّعائـيّ، يقول رحمه الله: «وأمَّا ما وجد في هـذا الدُّعاء من ذكر

(١) سورة إبراهيم، من الآية: ٢٦.
(٢) سورة البقرة، من الآية: ١٢٤.
(٣) سورة البقرة، من الآية: ١٢٤.
(٤) سورة التوبة، من الآية: ١١٢.
(٥) سورة الأحزاب، من الآية: ٣٥.
(٦) سورة المعارج، من الآية: ١.
(٧) سورة المعارج، الآية: ٣٤.
(٨) صفوة الصِّفات: ١٣٣-١٣٩.

الكلمات، فمنها ما معناه المشيئة والإرادة، وهي التي مرَّت في أوَّل البحث. ومنها قوله: «**وَتَمَّتْ كَلِمَتُكَ الْحُسْنى عَلَيْهِمْ بِما صَبَرُوا**»، أي: على بني اسرائيل... ومنها قوله فيه: «**وَبِشَأْنِ الْكَلِمَةِ التَّامَّةِ**» يحتمل أن يراد بها: الاسم الأعظم، ويحتمل الإمامة، ويتحمل القرآن، ويحتمل آل محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم. ومنها قوله فيه: «**وَبِكَلِماتِكَ الَّتي تَفَضَّلْتَ بِها عَلى اَهْلِ السَّماواتِ وَالْاَرْضِ**»، يحتمل أن تكون نعيمه التي لا تتناهى أو أن تكون اسماؤه التي علّمها الله لخلقه، فيدعوه بها... ومنها قوله فيه: «**وَاَسْأَلُكَ بِكَلِمَتِكَ الَّتي غَلَبَتْ كُلَّ شَيء**» يتحمل أن تكون الأمانة، ويحتمل أن تكون القوَّة والقدرة، وأن تكون الحجج والبراهين»[1].

وأقول: كم من مبدأ معرفيّ من نصٍّ قرآنيّ ودعائيّ في سياق هذا النَّصِّ!، وكم من تأثير مرجعيَّات الأوَّل في الثاني، اتُّخِذَت مبادئها لانتاجيَّة النَّصِّ الموازيّ في الشَّرح والتَّوضيح والتَّفسير. لقد امتدح الشيخ الكفعميّ رحمه الله من معارفه ما توصيفه مراصد لإدراك مقاصد ودلالات موضوعيَّة ومفاهيميَّة، ليس لنصِّ (دعاء السِّمات) فحسب، وإن كان في النَّظر هو المقصود الأوَّل، بل للنصِّ القرآنيّ، وهو الهدف الثاني في التَّفسير، ولعلَّه هو الهدف المقصود، والنَّصُّ الدُّعائيّ هو العِلَّة والسَّبب في النَّشر والتَّوليف، وهو برهان على ما تقدَّم بنا من قول.

لقد عيَّنت جدليَّة المساق في السِّياقين النَّصِّيّ القرآنيّ والدُّعائيّ نحوًا ممَّا يمكن أن نسمِّيه كُلِّيَّات محوريَّة، أُجْمِلَت في عبارات، لم تقطع بها قراءة، ولم يسلَّم النَّظر بعد التَّفصيل فيها بجهة دلاليَّة، بل شاع من أمر الإجمال والاحتمال الدَّلاليّ ما جعل تأثير النَّصِّ القرآنيّ في شرح النَّصِّ الدُّعائيّ واضحًا، بمعنى آخر أنَّ ما أُرسِل في تصوُّر الاحتمال الدَّلالي في النَّصِّ القرآنيّ، هو أمرٌ جارٍ في النَّصِّ الدُّعائيّ أيضًا، فإذا كانت إبداعيَّة النَّصِّ الأوَّل تقرِّر جماليّات تحاول كشفها القراءة المتعدِّدة؛ لانفتاح النَّصّ وقدرة

(١) صفوة الصِّفات: ١٤٣-١٤٤.

القراءة على إدراك ما فيه من الأسرار ومعانٍ، فإنَّ النَّصَّ الثاني، بلا شكٍّ، سوف يجري عليها بداهة، لأنَّهما من فيض واحد.

ومن ذلك أيضًا في «قوله: (**وَأَوْفَيْتَ لإبراهيمَ عليه السلام بِميثاقِكَ، وَلإِسْحاقَ بِحَلْفِكَ وَلِيَعْقُوبَ بِشَهادَتِكَ، وَلِلْمُؤْمِنينَ بِوَعْدِكَ...**)».

قال رحمه الله: «أمَّا ميثاق إبراهيم عليه السلام، فالظَّاهر أنَّه ما واثقه به من البشارة: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[1]... ويحتمل أن يُراد بالميثاق الإمامة، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾[2]...»[3].

وقد ينفرد الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله في بعض الأحيان بالنَّصِّ القرآنيّ نفسه بإشارة من مفردة في نصٍّ (دعاء السِّمات)، ويبني عليها تصوُّرًا من الاحتمالات والأقوال من ذلك مثلًا قوله رحمه الله: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[4]. قيل: العدل في المعاملات، والإحسان في الصَّلاة. وقيل: العدل في التَّوحيد والإحسان أداء الفرائض. وقيل: العدل في الأفعال والإحسان في الاقوال. وقيل: العدل أن ينصف وينتصف، والإحسان أن ينصف ولا ينتصف. وقيل: العدل استواء السرِّ والعلن، والإحسان كون السرِّ أحسن»[5].

أقول: لماذا لا يكون العدل في كلِّ هذه المعاني والدَّلالات الاحتماليَّة، وبلا قطع بواحدة دون سواها؟. وهل من الدَّليل على ذلك أجمل ممَّا في عظمة الآمر سبحانه وتعالى بالأمر، وقيم المأمور به. إنَّ مرسلة التَّوصيف الاحتماليّ وتكوثر القول في نصٍّ (صفوة الصِّفات) يُشعر بذلك.

(١) سورة هود، من الآية: ٧١.
(٢) سورة الزخرف، من الآية: ٢٨.
(٣) صفوة الصفات: ٢٣٥-٢٣٦. ينظر: ٢٣٧، و٢٣٩،
(٤) سورة النحل، من الآية: ٩٠.
(٥) صفوة الصِّفات: ٤٤٠. وينظر: المصدر نفسه: ٤٣١.

يمكـن القول إذن: إنَّ منطق الاحتمال المعنويّ والدَّلاليّ التي سـعت إليها ممارسـة الشَّـيخ الكفعميّ رحمه الله وما وظَّف فيها من آليَّات، قد ولَّفت مـن نظريَّة الإجمال في النَّصّ جماليَّـة، تتكيَّف لها قراءة نحويَّات الدَّلالة النَّصِّيَّة، محاولة لكشـفها وبيانها وتفسـيرها، وهو أمر يدعو إلى ما يأتي:

- القدرة على محاولة فهم النَّصّ واستيعاب جوانبه الدَّلاليَّة.
- الثَّقافة الواسـعة التي تعتمل في النَّصّ ورصد الاحتمالات الدَّلاليَّة والإجماليَّة فيه.
- انفتـاح النَّصِّ نفسـه على خزائن مـن الدَّلالـة، وكنوز من المعـاني والمفاهيم، وتعدُّديَّةٍ من نحو القراءات.
- الإلماح إلى أهمِّيَّة النَّصِّ، وأنَّه ليس من السُّهولة القطع بدلالته؛ لما فيه من أسرار خفيَّة، ودقائق مجملة، ونكت عميقة.
- تـرْك المتلقِّي يقرِّر ما يأخذه وبحسـب ما يتوافر له من جـدل القرائن والأدلَّة التي تولِّف قراراتها شبكة النَّصِّ، وتدعو إلى تأمُّلها أبواب الاجتهاد والنَّظر.

في ثقافة التَّناصّ الدُّعائي- القرآنيّ

تنـدرج مفاهيم (التَّنـاصّ)[1] في الـدَّرس اللِّسـانيّ والنَّقديّ الحديـث[2]، بضمن

(١) أقول: النَّظر ثمَّة، أعلى من قيم التَّصوُّر الاصطلاحيّ العربيّ، ولاسـيما التَّضمين والاقتباس... وسـواها، فكلٌّ في ظنِّي داخل تحت مفهوم التَّعالق والتَّداخل النَّصِّيّ، بل لعلَّ الأخير بقانون عام تجري عليه مقولات تفسير النَّصِّ بالنّصِّ، والمقاربة النَّصِّيَّة، في مقاربة نصٍّ بنصّ.

(٢) ينظر: علم النَّصّ، جوليا كريسـطيفا: ٢١، ودراسـات في النَّـصّ، والتَّناصيَّة، بحوث مترجمة، محمَّـد خـير البقاعـي: ٣٨-٣٩، و٥٨، و٩٧، ومدخـل إلى التنـاص، ناتـالي بييقـي- غروس: ١١، والخطيئـة والتكفـير، عبـد الله الغذَّامي: ٢٨٨، وتحليـل الخطاب الشـعريّ، محمَّد مفتاح: ١١٩، ونظريَّـة النَّصّ، حسـين خمري: ٢٥٣-٢٦١، وإشـكاليَّة المصطلح، يوسـف وغليسي:=

مقـولات (حوار النُّصـوص)، أو (النُّصـوص المتداخلـة)، أو التَّعالي/ التَّعالق النَّصِّيّ، في مبـدأ إدراكي مخصوص بـ: «كلِّ ما يجعله [النَّصّ] في علاقة خفيَّـة أم جليَّة مع غيره مـن النُّصوص»[1]، وهو، أي: (التَّناص)، وصف يجـري على نحو «العلاقات بين نصٍّ مـا ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سـابقة، سـواء بواسـطة أم بغير وساطة...»[2].

ولهـذا أجرت (جوليا كريسـطيفا) على أساسـه مفهوم النَّصِّ، تقـول: «إنَّه ترحال للنصـوص وتداخل نـصِّيّ، ففي فضاء نـصٍّ معيَّن تتقاطـع وتتنافى ملفوظـات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى»[3]. وهو جوهر التَّناصيَّة والتَّناص؛ لأنَّه عبارة عن مجموعة مـن النُّصوص لها علاقة بنـصٍّ محدَّد[4]، يُعدُّ مركـزًا لها، يفضي إلى مقولـة (الانتاجيَّة). وأقام (رولان بارت) عليه رؤية حدَّد فيها كيفيَّة إعطاء (التَّناص) «أصوليًّا، نظريَّة النَّصِّ جانبها الاجتماعيّ»، يقول: «فالكلام كُلُّه: سالفه وحاضره يصب في النَّصِّ، ولكن ليس وفق طريق متدرِّجة معلومة، ولا بمحاكاة إراديَّة، وإنَّما وفق طريق متشعِّبة- صورةٌ تمنح النَّصَّ وضع الانتاجيَّة، وليس إعادة الانتاج»[5].

وهذه الانتاجيَّة النَّصِّيَّة التي يؤدِّي فاعليتها (التَّناصّ) قد تكون متوزِّعة على جانبي

=٣٨٩-٤١٩، والمصطلحـات الأدبيَّة الحديثة، محمَّد عنـاني: ٤٦، ومعجم المصطلحات الأدبيَّة المعاصرة، سـعيد علوش: ٢١٥، ومناهـج النَّقد المعاصر، صلاح فضل: ١٦٢، وبلاغة الخطاب وعلـم النَّصّ، صلاح فضل: ٢٢٩، ومدخل إلى علـم النَّصّ، محمَّد الأخضر الصبيحيّ: ١٠٠- ١٠٤، وعلم لغة النص، عزَّة شبل: ٧٤.

(١) مدخل لجامع النَّصّ، جيرار جينيت: ٩٠.

(٢) النَّصّ والخطاب والإجراء، دي بوجراند: ١٠٤.

(٣) علم النَّصّ، جوليا كريسطيفا: ٢١.

(٤) ينظر: دراسات في النَّصّ والتناصيَّة، بحوث مترجمة: محمَّد خير البقاعيّ: ٩٧.

(٥) المصدر نفسه: ٣٨-٣٩.

التَّكوين النَّصِّيّ والتَّداخل، فتارةً تُحيل على خاصيَّة تكوينيَّة لأيِّ نصّ، وتارةً أخرى على مجموع العلاقات الصَّريحة أو الضِّمنيَّة التي يقيمها نصّ مع نصوص أخرى[١].

لقد أصبحت مقولة (التَّناص) «قدر كلِّ نصٍّ مهما كان جنسه، لا تقتصر حتمًا على قضية المنبع أو التَّأثير... [إنَّها] مجال عام للصيغ المجهولة، التي يندر معرفة أصلها...»[٢]. فكلُّ نصٍّ «هو تناصّ، والنُّصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة، وبأشكال ليست عصيَّة على الفهم بطريقة، أو بأخرى... فكلُّ نصٍّ ليس إلَّا نسيجًا جديدًا من اسشتهادات سابقة»[٣]. يقول الأستاذ محمَّد مفتاح: «إنَّ التَّناص شيء لا مناص منه؛ لأنَّه لا انفكاك للإنسان من شروطه الزمانيَّة والمكانيَّة ومحتوياتهما، ومن تاريخه الشَّخصيّ، أي: من ذاكرته. فأساس انتاج أيِّ نصٍّ هو معرفة صاحبه للعالم، وهذه المعرفة هي ركيزة تأويل النَّصِّ من قبل المتلقِّي أيضًا»[٤].

وهذا ما يؤدِّيه (ليتش) أيضًا يقول: «إنَّ النَّصَّ ليس ذاتًا مستقلَّة أو مادَّة موحَّدة، ولكنَّه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى. ونظامه اللُّغويّ، مع قواعده ومعجمه، جميعها تسحب إليها كمًّا من الآثار والمتقطفات من التَّاريخ... إنَّ شجرة نسب النَّصِّ حتمًا لشبكة غير تامَّة من المقتطفات المستعارة... والموروث، يبرز في حالة تهيُّج. وكلُّ نصٍّ حتمًا: نصٌّ متداخل»[٥].

ولقد تبدو هذه المسلمة من الوضوح بداهةً إذا عقدنا تصوُّرًا أنَّ النَّصَّ عبارة عن كمٍّ معرفيٍّ مؤلَّف في قالب لغويّ مقصود، قائم على سبيل الإبلاغ، وهذا، بلا جدل،

(١) ينظر: إشكاليَّة المصطلح، يوسف وغليسي: ٣٩١. ومدخل لجامع النص، جرار جينيت: ٩٠.
(٢) دراسات في النَّصّ والتناصيَّة، بحوث مترجمة: محمَّد خير البقاعي: ٣٨.
(٣) المصدر نفسه: ٣٨.
(٤) تحليل الخطاب الشعريّ: ١٢٣.
(٥) الخطيئة والتكفير، عبد الله الغذَّاميّ: ٢٨٩. وينظر: مصدره.

يستدعي ثقافة واسعة، وذاكرة طويلة عميقة في معرفة هذا التَّداخل النَّصِّيّ وإدراك أشكاله وأنماطه، وفي كونه ذا علاقات متعدِّد من نتاجات وثقافات سابقة عليه في التَّكوين، ولهذا انتهى (بارت) إلى قول: «إنَّ النَّصَّ ليس سطرًا من الكلمات، ينتج عنه معنًى أحاديّ، أو ينتج عنه معنًى لاهوتيّ... ولكنَّه فضاء لأبعاد متعدِّدة، تتزاوج فيها كتابات مختلفة وتتنازع، دون أن يكون أيّ منها أصليًّا: فالنَّصُّ نسيج لأقوال ناتجة عن ألف بؤرة من بؤر الثَّقافة»[1].

ولم تقف النَّظريَّة اللِّسانيَّة النَّقديَّة من تكوين هذا المفهوم (التَّناص) توصيفًا علائقيًّا ظاهرًا أو مضمرًا في النَّصِّ فحسب، من دون النَّظر إلى قيمته المعياريَّة أيضًا، حتَّى صار تداخل النُّصوص أداة منهجيَّة ومعرفيَّة في توصيف النَّصِّ نفسه، يدلُّ على موقفٍ، وعلى حقلٍ مرجعيٍّ واختيار[2]، بل أصبح النَّصُّ يشكِّل به ثقافة في مفهوم (تكامل النُّصوص)، ويجعل منه مبدًا قيِّمًا في تحديد النُّصوص وأنواعها[3].

وعلى أيِّ حال لستُ هنا في تقرير سمة التَّوصيف الاصطلاحيّ، وما في مفهوم (التَّناص) من إشكاليَّات، أو تأصيل مفاهيميّ في الدَّرس النَّقديّ القديم والحديث على نحو أكبر وفي صحائف أكثر، فهذا له شأنه المرصود بالتَّصوُّر المعرفيّ المنجز. بيد أنَّي أريدُ أن أقف على موضوع التَّداخل النَّصِّيّ في النَّصّ الدُّعائيّ الذي يستقي من أنساق النَّصّ القرآنيّ، في (دعاء السِّمات)[4]، وإشارات الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله التي هيَّأت له من قواعد

(١) نقد وحقيقة: ٢١.

(٢) ينظر: دراسات في النَّصِّ والتَّناصيَّة، بحوث مترجمة: محمَّد خير البقاعيّ: ٥٨.

(٣) ينظر: النَّصُّ والخطاب والإجراء، دي بوجراند: ١٠٤.

(٤) لا أجدُ ما يشكِّل إشكاليَّة في نصِّ الرواية التي نقلها الشَّيخ الكفعمي رحمه الله في مبحث فضل الدُّعاء في المقدِّمة التي عقدها للصَّفوة، من أنَّ «يوشع بن نون وصي موسى عليه السلام لـمَّا حارب العماليق، وكانوا على صور هائلة ضعُفت نفوس بني إسرائيل عنهم، فشكَوا إلى الله عزَّ وجلَّ، فأمر الله تعالى يوشع عليه السلام أن يأمر الخواصَّ من بني إسرائيل أن يأخذ كلُّ واحدٍ منهم جرَّة من الخزف فارغة=

(النَّـصّ الواصف) في كتاب (صفوة الصِّفات) الشَّيءَ الكثير، أبرزت فيه ثقافاته العالية وقراءاتـه الواسـعة، وذاكرته الطَّويلة العميقـة، وقدرته الفذَّة على اسـتدعاء النُّصوص وترتيبهـا ووضعهـا حيث تنتمي عنـد ملاحظة تداخلها وما فيها من تضمين ومشـابه، ثُمَّ إستراتيجيَّاته في الشَّرح، والتَّوضيح، والتَّوظيف، بل تعيين موارد النَّصّ نفسه أيضًا، ومـا فيه من أنماط وأشـكال متداخلة على نحـو اتفاق (تطابقيّ، أو نسـبيّ)، مباشرة أو غيره.

أقـول: لقـد تضمَّن نـصُّ (دعاء السِّـمات) مـن المفاهيـم والموضوعـات القرآنيَّة الكثير[1]، إنَّه كمٌّ معرفيّ دينيّ عباديّ يشـتمل على مفاهيم عقديَّة كالأسـماء والصِّفات الإلهيَّـة، والملائكة وأسـمائهم وأصنافهـم، والسَّـموات وخلقها ومكوِّناتهـا وأفلاكها وشمسـها وقمرهـا، والأرض ومدَّخراتهـا وجبالهـا ورياحهـا وبحارهـا وعجائـب

=على كتبه الأيسر باسم عمليق ويأخذ بيمينه قرنًا مثقوبًا من قرون الغنم، ويقرأ كلٌّ واحدٍ منهم في القـرن هذا الدعـاء...». وتأييده لها عندما قـال: «ولقد وجدت هـذا الحديث المرويّ عن الإمـام الباقر عليه السلام وهو بعينه مرويٌّ عن الإمام الصادق عليه السلام، إلَّا أنه ذكر: أنَّ محاربة العمالقة كانت مـع موسـى عليه السلام...». [صفوة الصفـات: ٦٩-٧٠] ما يعني ظاهـرًا أنَّ الدُّعـاء كان قبل القرآن الكريـم، وهذا يخلق إشـكاليَّة مفادها: كيف يكون بين النَّصَّين تنـاص، والمروي كذلك. أقول: لا مفارقـة ونصّ الروايـة والخطاب القـرآنيّ، فالدعاء مـوروث عباديّ، وملاحظـة العلاقات النَّصِّيَّة مداره المحوري في المفاهيم، وهي بلا شـكّ متداخلة، ناهيك بسـياق اللُّغة الموافق للنصِّ القرآنيّ.

وأقول: هل تختلف عبارة الموضوعات القرآنيَّة اختلافًا كبيرًا عن الموضوعات الدعائيَّة، إنَّ نظرة يسـيرة ترجِّـح مبدأ الصادر، وهـو أمر يدعو إليه سـبيل التَّناص، إذ لا شـكَّ في أنَّ الدعاء عالمه عالم التذلل والخضوع والتوجه إليه سـبحانه وتعالى، وهذه بلا ريب مضامين يدعو إليه الخطاب القرآني نفسـه، بل إنَّ الدعاء نفسه من مضامين الخطاب القرآني، فلا يعني أنَّ دعوة الموضوعات القرآنيَّة خارجة عن سـياقها في الشرح الدُّعائي، بل هي مقدِّمات معرفيَّة لمضمون النَّصِّ الغائب الذي يقتضيه اقتضاءً.

(١) سنأتي على بعض من ذكرها لاحقًا في المحور الثاني من البحث، إن شاء الله تعالى.

مخلوقاتها، والأمكنة والأزمنة المقدَّسة، ومفاهيم النُّبوَّة والإمامة، والنور والظلمة وإجابة الدَّعوات، وأسماء الأنبياء والرُّسل وذريَّاتهم، ومنازلهم ومعاجزهم وآياتهم وقصصهم وتاريخهم، وأحداث جرت عليهم، ومواقف مرَّت بهم، ولا ريبَ في أنَّ كلَّ هذه الموضوعات تقتضي إدراكًا كبيرًا، ومعرفة واسعة قبليَّة، وقدرة على ملاحظة العلاقات التي تكون بين النُّصوص الدُّعائيَّة والقرآنيَّة، مسنودة بذاكرة جامعة تشريحيَّة توثيقيَّة، تعمل على تصنيف إشارات هذه المعارف وعلاماتها، ورصد ما بينها من تعالق وتشابه رمزيّ وإحاليّ، ثُمَّ الإفضاء إلى شرحها وتوضيحها. وفي ظنِّي، أنَّه لو اقتصرنا على فقرة واحدة من (دعاء السِّمات)، ونظرنا في مناصاته على مستوى الإفراد، شكلًا ومضمونًا، لكُنَّا قد خرجنا عن مطلبنا، فكيف، وفي كلِّ مفردةٍ من مفردات الدُّعاء، كان الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله يجري عليها حوكمة خاصَّة، يرصد فيها معجمًا قرآنيًّا ونصًّا موازيًا شارحًا، ينتقي منه ما يوافقها (المفردة)، أو الفقرة، وهذا هو الغالب في تضاعيف كتاب (الصَّفوة)، كما ذكرنا سابقًا.

فمن ذلك مثلًا في «قوله: (**وَإِذَا دُعِيْتَ بِهِ عَلَى العُسْرِ لِلْيُسْرِ تَيَسَّرَتْ**)».

فالشَّيخ الكفعميّ رحمه الله وإن لم يصرِّح، ثمَّة بكون هذه الفقرة الدُّعائيَّة فيها من تضمين قرآنيّ، إلَّا أنَّه يرصده في فهرسة خاصَّة كاعتياده في فقرات الدُّعاء، وذلك في مضمون العسر واليسر، قال رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾[1]. أي: في وقتها إشارة إلى غزة تبوك... وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[2]...»[3].

ولعلَّه يأتي، أعني: التَّناص، في الشَّكل ومدارك التَّعليل، وذلك مثلًا في «قوله:

(١) سورة التوبة، من الآية: ١١٧.
(٢) سورة الشرح، الآيتان: ٥-٦.
(٣) صفوة الصفات: ١٠٧-١٠٨.

(مَغالِقِ اَبْوابِ السَّماءِ لِلْفَتْحِ بِالرَّحْمَةِ انْفَتَحَتْ، وَاِذا دُعيتَ بِهِ عَلى مَضآئِقِ اَبْوابِ الْاَرْضِ لِلْفَرَجِ بالرَّحمةِ انْفَرَجَتْ)».

قال: «قد حصلت في هاتين العقدَتَين اللتين هما: (مغالق أبواب السَّماء للفتح بالرحمة انفتحت، ومضايق أبواب الأرض للفرج بالرحمة انفرجت) أنواعًا من البديع... منها لام العلَّة: في للفتح، وللفرج بمعنى: أنَّ الاسم الأعظم علَّة لفتح المغالق، وتفريج المضايق، قال تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] فسبق الكتاب من الله تعالى علَّة للنجاة»[2].

وقد يُرصد التَّناص في التَّشكيل النَّظميّ والأسلوبيّ، وهذا وما سواه أشبه بقاعدة قرآنيَّة يقيس عليها الشَّيخ الكفعميّ مستويات التَّركيب الدُّعائيّ، كما سيأتي أيضًا، فمن ذلك مثلًا في «قوله: (الَّذي عَنَتْ لَهُ الْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهُ الْاَصْواتُ وَوَجِلَتْ لَهُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخافَتِكَ)».

قال: «وقراءة «خشعت الأصوات» بالشين أولى من «خضعت» بالضَّاد، وإن كان معناهما واحدًا اتِّباعًا للفظ التَّنزيل في قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[3]، والهمس: الصَّوت الخفيّ»[4]. وهذا ليس رصدًا للتَّناص فحسب، بل بيان المفاضلة في النَّظم السِّياقيّ أيضًا.

ومن ذلك أيضًا في «قوله: (وَجَعَلْتَ لَها مَشارِقَ وَمَغارِبَ)».

قال: «إنَّما ابتدأ بذكر المشارق قبل المغارب اتباعًا للفظ التَّنزيل في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾[5]؛ ولأنَّ الشروق قبل الغروب. وقوله تعالى: ﴿رَبُّ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٨.
(٢) صفوة الصفات: ٨٨-٨٩.
(٣) سورة طه، من الآية: ١٠٨.
(٤) صفوة الصِّفات: ١٢٥.
(٥) سورة المعارج، من الآية: ٤٠.

﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾[1]»[2].

ومن ذلك أيضًا في «قوله: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُكَ الْحُسْنى عَلَيْهِمْ بِما صَبَرُوا)».

قال: «أي على بني اسرائيل، والكلمة هي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3]»[4].

وقد يضيئ التَّعالُق النَّصِّيّ في روحه الطَّيب إشارةً من نور يتَّخذ منها بيانًا؛ لتصويب رأي، وتصحيح تفسير، وذلك في «قوله: (فِي الْوادِ الْمُقَدَّسِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ مِنَ الشَّجَرَةِ)».

قال: «أمَّا الوادي، فقال صاحب تلخيص الآثار: هو بقرب بيت المقدس... وقيل: إنَّ موسى قُبِضَ فيه. وأمَّا الشَّجرة فقال بعضهم: هي عصاة هارون، وذلك أنَّه وقع بين بعض الأسباط مشاجرة، فقالوا: إنَّما استخلفت أخاك حُبًّا له وإيثارًا. فقال موسى: إنَّما فعلت ذلك عن أمر الله تعالى. ثُمَّ أخذ موسى عصى الأسباط وكتب على كلِّ واحدةٍ اسم صاحبها، فلمَّا كان يوم الغد أورقت عصاة هارون، فكانت من لوزٍ وانعقد عليها اللوز. قلتُ: هذا ليس بصحيح، بل الشجرة هي المشار إليها في التَّنزيل بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[5]»[6].

ومن ذلك أيضًا في «قوله: (وَأَوْفَيْتَ لِإبْراهيمَ بِميثاقِكَ، وَلِإسْحاقَ بِحَلْفِكَ...)».

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٧.

(٢) صفوة الصِّفات: ١٧١.

(٣) سورة القصص، من الآية: ٥.

(٤) صفوة الصفات: ١٤٣.

(٥) سورة القصص، الآية: ٣٠.

(٦) صفوة الصِّفات: ٢٠٩-٢١٠.

قال رحمه الله: «قال بعضهم معناه: إنَّه تعالى آلى أن لا يسلم ولد إسحاق إلى هلكة لمكان صبره على الذَّبح. قلتُ: وهذا ليس بصحيح لتظافر [كذا] روايات أئمَّتنا عليهم السلام بأنَّ الذَّبيح إسماعيل عليه السلام. ويعضده قوله تعالى بعد قصَّة الذَّبح: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾[1]، ومن قال: إنَّ البشارة بنبوَّة إسحاق، قيل: ترك الظَّاهر. وقال تعالى في موضع آخر: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[2]، فكيف يبشر بذريته، ثُمَّ يأمر بذبحه؟!»[3].

أقول: لقد سلك الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله من التَّناص/ التَّداخل النَّصِّيّ في هذه الفقرة الدُّعائيَّة، وسابقتها، أداة منهجيَّة معرفيَّة في ردِّ قصد النَّصِّ إلى مراده ومعناه، ولولا هذه الذاكرة وثقافتها العميقة، قراءةً وعملًا في التَّوصيف والتَّوظيف، فضلًا عن الاستدلاليَّة؛ لما كانت مقولات التَّوجيه والتَّصحيح قائمة.

ومن ذلك أيضًا في «قوله: (**وَفِي الْمُنْبَجِسَاتِ الَّتِي صَنَعْتَ بِهَا الْعَجَائِبَ فِي بَحْرِ سُوف**)».

قال رحمه الله: «المنبجسات وهي العُيُون الجارية من الحجَر، وإليها الإشارة في التَّنزيل بقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[4]. وفي آية أخرى: ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[5]، والانبجاس والانفجار واحد...»[6].

لقد شكَّلت ثقافة الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله العميقة في القصص القرآنيّ وأحداثها، شكَّلت مرجعيَّة رصْدٍ، ومعالم في تعيين القصدِ، وليس هذا بالغريب، فالنَّصّ الدُّعائيّ

(١) سورة الصَّافَّات، من الآية: ١١٢.
(٢) سورة هود، من الآية: ٧١.
(٣) صفوة الصِّفات: ٢٣٧.
(٤) سورة البقرة، من الآية: ٦٠.
(٥) سورة الأعراف، من الآية: ١٦٠.
(٦) صفوة الصِّفات: ٢٢١.

(السِّمات) حامل لهذه القصص والأحداث، بل هو يعجُّ فيها وفي مفاهيمها ومضامينها، كقصة النَّبي إبراهيم عليه السلام، وعموم أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، جعلت من النَّصِّ القرآنيّ كاشفًا عنها، ومترجمًا لمقولاتها وإشاراتها، لقد كان رحمه الله ما أن يقدح في نفسه الكريمة من شيءٍ بذي علقة من ذلك في النَّصِّ الدُّعائي، حتَّى يجري على تصفحه قرآنيًّا، بل يتابعه تكميلًا واضعًا له ما يناسبه من الآيات والنُّصوص أيضًا.

فمن ذلك مثلًا في «قوله: (**وَخَمَدَتْ لَهَا النِّيرَانُ فِي أَوْطَانِها**)».

قال رحمه الله: «فأمَّا النِّيران الخامدة له تعالى، [فـ]يُحتمل أن تكون نار الخليل عليه السلام التي أوقدها النمرود. قال الطبرسيّ في تفسيره: إنَّه أشعل نارًا عظيمة حتَّى كادت الطير تحترق من وهجها، ثُمَّ وضعوه في المنجنيق مقيَّدًا مغلولًا، فرموا به فيها. وعبَّر سبحانه بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[1] عن جعلها كذلك؛ لأنَّها جماد لا يصحُّ خطابها... ويحتمل أن تكون المراد بالنيران المخمدة نيران اليهود وإليها الإشارة في القرآن بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾[2]، أي: كلَّما أرادوا محاربة النَّبيّ صلى الله عليه وآله غُلِبوا، ولم يكن لهم ظفر قطّ»[3].

ومن ذلك أيضًا في «قوله: (**وَبِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي تَجَلَّيْتَ بِهِ لِلْجَبَلِ، فَجَعَلْتَهُ دَكًّا، وَخَرَّ مُوسى صَعِقًا**)».

قال رحمه الله: «وقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[4]. قال الطبرسي: أي: خرَّ مغشيًّا عليه غشية كالموت، من هول ما رآه. وفي (الدرر والغُرَر): لـمَّا ظهر نوره تعالى للجبل ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾[5]، أي: مستويًا من الأرض، وقيل: ترابًا، وقيل:

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.
(٢) سورة المائدة، من الآية: ٦٤.
(٣) صفوة الصِّفات: ٣٠٧-٣٠٨.
(٤) سورة الأعراف، من الآية: ١٤٣.
(٥) سورة الأعراف، من الآية: ١٤٣.

ساخ في الأرض...»[1].

وكذلك في «قوله: (وَيَوْمَ فَرَقْتَ لِبَنى اِسْرآئيلَ الْبَحْرَ)».

قال رحمه الله بعد تسييقه لجملة من المفردات القرآنيَّة لمفردة (فرق) في نصِّ الدُّعاء، قال: «وفَرَقت: أي: فَلَقتَ... وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾[2]، أي: فصلنا بين بعضه وبعض حتَّى صارت فيه مسالك لكم والمعنى في ﴿بِكُمُ﴾ أنَّهم كانوا يسلكونه ويتفرَّق الماء عند سلوكهم، فكأنَّما فرق بهم، ويجوز أن يُراد بسببكم وبسبب إيمانكم»[3].

ومن ذلك أيضًا في «قوله: (وَسَخَّرْتَها بِسُلْطانِ اللَّيْلِ، وَسُلْطانِ النَّهارِ، وَالسَّاعاتِ وَعَدَدَ السِّنينَ وَالْحِسابِ)».

قال رحمه الله: «والمعنى: أنَّه تعالى سخَّر الكواكب والنَّيرين لمعرفة الليل والنَّهار ومعرفة الساعات وعدد السنين والحساب. قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[4]، أي: فمحونا آية الليل التي هي القمر حيث لم يخلق له شعاعًا كشعاع الشمس، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء لتبتغوا فضلًا من ربِّكم، أي: للتوصّلوا ببياض النهار إلى التَّصرُّف في معايشكم وطلب أرزاقكم، ولتعلموا باختلاف الليل والنهار: عدد السنين والشهور وجنس الحساب وآجال الديون وغير ذلك؛ ولولاهما لم يُعلم شيء من ذلك، ولتعطّلت الأمور»[5].

(١) صفوة الصِّفات: ٣٥١-٣٥٢.
(٢) سورة البقرة، من الآية: ٥٠.
(٣) صفوة الصِّفات: ٢١٩.
(٤) سورة الإسراء، من الآية: ١٢.
(٥) صفوة الصِّفات: ١٨٠.

أقول: كلُّ ذلك شأنه وسببه ملاحظة ما في التَّداخل النَّصِّي والمعرفيّ من علاقات بين النَّصّ الدُّعائي والنَّصّ القرآنيّ، ولولا هذا الإجراء ما كان من توثيق واختيار في منظومة الشَّرح والتَّفسير المرسل.

في السِّياق القرآنيّ- مداركه الأصوليَّة وأثرها في شرح النَّصِّ الدُّعائيّ

السِّياق القرآنيّ نصٌّ شارحٌ للنَّصِّ الدُّعائيّ

يلجأ الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله إلى مدارك السِّياق النَّصِّيّ القرآنيّ، وهو اعتياده في الفهم والتَّوجيه، ليتَّخذ منه سيرة معنى تفصيليّ لما يريد أن يشرحه ويوضِّحه من النَّصِّ الدُّعائيّ، إذ يذكر في البيان آية قرآنيَّة تعمل على شرح معنى النَّصِّ، كأنَّ النَّصَّ القرآنيّ هو الفاعل لهذا التَّوضيح والبيان، ثُمَّ يستند من بعدُ إلى ما في التَّفسير من زيادة، تدلُّ انتقاء واعٍ لهدف رشيد.

فمن ذلك مثلًا في «قوله: (وَرَكَدَتْ لَهَا الْبِحارُ وَالْأَنْهارُ)».

قال رحمه الله: «إنَّه بدأ بذكر البحار الدّالة على عظمها لما فيها من منافع الخلق وفوائد الرزق، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[1]. قال الطبرسيّ في جوامعه: سخَّر البحر، أي: ذلَّله لكم، وسهَّل لكم الطَّريق إلى ركوبه، واستخرج ما فيه من المنافع، وأراد باللَّحم: طريّ السَّمك، وُصِف بالطراوة؛ لأنَّ الفساد يُسرع إليه، فيسارع في أكله، لئلَّا يفسد، والـ﴿ حِلْيَةً ﴾ هي اللؤلؤ والمرجان، ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾، أي: تتزيَّنون بها وتكسونها نساؤكم، ﴿ مَوَاخِرَ ﴾، أي: شواق الماء بحيازيمها، وعن الفرَّاء: المخر صوت جري الفلك بالرياح، وابتغاء الفضل: التِّجارة.

(١) سورة النَّحل، من الآية: ١٤.

قال الجوهريّ: البحر: البحر خلاف البرِّ، سُمِّيَ بذلك؛ لعُمْقِه واتِّساعِه، وكلُّ نهرٍ عظيم بحر، وتُسمَّى الفرس الواسع الجري بحرًا، وماء بحر، أي: ملح، وأبحر فلان ركب البحر، وتبحَّر في العلم، تعمَّق وتوسَّع»[1].

ومن ذلك أيضًا في «قوله: (وَلِلدَّاعينَ بِأَسْمائِكَ فَأَجَبْتَ)».

قال: «وأمَّا استجابته للدَّاعين بأسمائه، فهو عطف على ما تقدَّم، وأنَّه تعالى وفا لهم بالإجابة لما دعوه، قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[3]. إن قلت: إنَّا نرى كثيرًا ما لا يجاب دعاؤه؟، قلتُ: ذكر الطبرسيّ في مجمعه: أنَّ الدعاء وقع لا على وجه الحكمة، إذ شرطه عدم المفسدة»[4].

إنَّه: يضيء النَّصَّ الدُّعائيّ بالنَّصِّ القرآنيّ، ويجعل من الأثر القرآنيّ وتفسيره بيانًا وتوضيحًا لدعاء (السِّمات).

وقد يعتمد من المدوَّنة التَّفسيريَّة بعد إيراد ما يناسب المعنى والتَّوضيح، حتَّى يبدو كأنَّ المدوَّنة التَّفسيريَّة هي الموضِّحة، ليس للنَّصِّ القرآنيّ فحسب، بل للنَّصِّ الدُّعائي عرَضًا، فمن ذلك أيضًا في «قوله: (وَبِرَحْمَتِكَ الَّتي مَنَنْتَ بِهَا عَلى جَميعِ خَلْقِكَ)».

قال: «في كتاب زبدة البيان في قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾[5]. قال الحسن وقتادة: وسعت البر والفاجر في الدنيا، وفي الآخرة

(١) صفوة الصِّفات: ٢٨١-٢٨٢.
(٢) سورة غافر، من الآية: ٦٠.
(٣) سورة البقرة، من الآية: ١٨٦.
(٤) صفوة الصِّفات: ٢٤٢.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦، ومن الآية: ١٥٧.

وفي القيامة للمتَّقين خاصَّة، وقال عطيَّة العوفي: وسعت كلَّ شيء، ولكن لا تجب إلَّا للمتَّقين، وقال ابن عبَّاس وقتادة، وابن جريج: لـمَّا نزل ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قال إبليس: أنا من ذلك الشَّيء، فنزعها الله تعالى منه بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، فقال الكتابيُّون: نحن نتَّقي ونزكِّي، فنزعها الله تعالى منهم، وجعلها لهذه الأمة، بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾»[1].

إنَّ التَّراكم النَّصِّيّ والتَّفسيري أحال ما في النَّصّ الدُّعائيّ مطلبًا لما في النَّصِّ القرآنيّ من معنى ودلالة وقصد، بل لعلَّ القارئ لذلك لا يحظى بواحد منهما دون الآخر، بل المجمع ثمرته معرفةً واحدة، والسَّبب ما في توظيف النَّصِّ القرآنيّ وتفسيره من اشتراك في الدَّلالة على المعنى المراد.

أنساق «التَّكوثر» القرآنيّ

المنازل الأولى: المفردة القرآنيَّة الدُّعائيَّة: المحور والاقتران:

أدرك الشيخ الكفعميّ رحمه الله تمامًا أنَّ قيمة المفردة بقيمة دلالتها محورًا كُلِّيًّا واقترانًا سياقيًّا، فكيف بها إذا كانت تستمد رحيقها الدَّلاليّ من النَّصِّ القرآنيّ، ولذلك كان يحمل من خزائن المعجم القرآنيّ قوائم رأسيَّة في أنساق طويلة، لا تنفكّ عن سياقاتها النَّظميَّة والدَّلاليَّة، يتَّخذ منها رصيدًا لتعيين معاني المفردات التي في النَّصِّ الدُّعائيّ، إذ كان رحمه الله ما أن يجد مفردةً من تلك مفردات حتَّى يفتق منها معنى كُلِّيًّا إجماليًّا يحكمه بمفردات النَّصِّ القرآنيّ وسياقاته في نسق تكوثريّ، جاعلًا منها محورًا في الدَّلالة، وتشخيصًا بالاقتران، ولذلك كان يرصد بالممارسة التَّوضيحيَّة معنى قوامه أنَّ استعمال هذه المفردة في النَّصِّ الدُّعائيّ عبارة عن معنى كُلِّيّ ناتج من شبكة استعمالاتها ومقاصدها

(١) صفوة الصِّفات: ٢٥٨.

القرآنيَّة، حتَّى كأنَّها باب يدعو إلى أنَّ كشف ما خلفه يحتاج إلى النفاذ منه إليه، وهذا لا تتأتَّى مفتاحه دون النَّظر في فهرسة مفرداتيَّة خاصَّة مرصودة سلفًا من قراءة القرآن الكريم.

فمن ذلك مثلًا في «قوله: (وَبِعِلْمِكَ وَجَلالِكَ، وَكِبْرِيآئِكَ وَعِزَّتِكَ وَجَبَرُوتِكَ...)».

قال ﷺ: «أقسم عليه السلام على الله سبحانه بهذه الخمسة المذكورة... أمَّا العلم، فناهيك به جلالةً وشرفًا أنَّ شهادة أهله مقرونة بشهادة الله وملائكته في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾[1]، وقد رفع الله تعالى درجاتهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[2]. وذكرهم في علم التَّأويل مع نفسه، فقال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[3]، وقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4]... وكفاك دليلًا على شرفه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ﴾[5]، فجعل الغاية من ذلك: العلم. وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[6]، وقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[7]... وإذا كان هذا في فضل علم العلماء، فما ظنُّك بعلم الذي لا يشذُّ عنه معلوم، ولا يغرب عنه مكتوم، الذي وسع كلَّ شيءٍ علمًا وأحصى كلَّ شيءٍ عددًا»[8].

إنَّها فهرسة لمنازل المفردة قرآنيَّة وأنساقها المتراتبة، نسج منها الشَّيخ رحمه الله فطرَّز بها

(١) سورة آل عمران، من الآية: ١٨.
(٢) سورة المجادلة، من الآية: ١١.
(٣) سورة آل عمران، من الآية: ٧.
(٤) سورة الزمر، من الآية: ٩.
(٥) سورة سورة الطلاق، من الآية: ١٢.
(٦) سورة فاطر، من الآية: ٢٨.
(٧) سورة العنكبوت، من الآية: ٤٣.
(٨) صفوة الصفات: ٢٧٠-٢٧٢.

مسرح الكتاب وصحائف الشَّرح والتَّوضيح، والمستند المفردة المحوريَّة التي في النَّصِّ الدُّعائيّ، وهي (العلم)، وما اقترن بها في سياقات النَّصِّ القرآنيّ. إنَّها إذابة معنى ودلالة في نصٍّ حوى الأصل وزيادة، وهكذا هو الشأن في توظيف ما في النَّظائر لتدلَّ عليها الوجوه في النَّظم والمحاور[1].

وقد يأتي التَّوظيف على نحو كُلِّي، يصدر فيه الشَّيخ الكفعميّ ﷺ حُكْمًا عامًّا على معنى مرصود من النَّصِّ القرآنيّ، لإيراده بيانًا لمفردة من النَّصِّ الدُّعائي، كما في «قوله: (**وَبِسُلْطانِكَ الَّذى عُرِفَتْ لَكَ بِهِ الْغَلَبَةُ دَهْرَ الدُّهُورِ**)». قال ﷺ: «السلطان: مأخوذ من السلاطة، وهي القهر... والسلطان أيضًا الحجَّة والبرهان، وهو المعنى المراد هنا... وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[2]، أي: حُجَّة ظاهرة وخالية من التلبيس والتمويه. وقوله تعالى: ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴾[3]، أي: ملكي وسلطنتي على الناس وأمري ونهيي... وكلُّ سلطانٍ في القرآن فمعناه: الحُجَّة النيِّرة»[4].

وقد يتَّخذ ﷺ أيضًا من المفردة الدُّعائيَّة عِلَّة استطراد معرفيّ لأنساق التَّكوثر القرآنيّ، فيكون العنوان الفقرة الدُّعائيَّة محورًا، وما ورد فيها من معجميَّة ومناسبة يستقي أصولها من المفردة القرآنيَّة وملاحظة سياقاتها الاقترانيَّة، وهذا كثير في (الصَّفوة)[5]. فمن ذلك مثلًا في «قوله: (**وَجَعَلْتَ رُؤْيَتَها لِجَميعِ النَّاسِ مَرْئً واحِدًا**)».

قال ﷺ: «والمرئى: الرؤية والجمع المرائي. وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ

(١) سنأتي على كيفية توظيف (الوجوه والنظائر) كمحور من محاور التفسير اللُّغويّ والنظميّ لدى الشيخ الكفعمي ﷺ لاحقًا إن شاء الله تعالى.

(٢) سورة هود، الآية: ٩٦.

(٣) سورة الحاقَّة، الآية: ٢٩.

(٤) صفوة الصِّفات: ٣١١.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٩، و١٤٣، و١٤٥، و١٥٧، و١٩٤، ٢١٩، و٢٥٨، و٢٦٣، و٢٦٦، ٤٣١.

﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءَ﴾[1]، أي: ألم تسمع. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾[2]، أي: ألم ينته علمك إلى هؤلاء، ومعناها: أعرفهم. وقوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[3]، أي: علّمنا. وقوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾[4]، أي: يعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ﴾[5]، أي: عرّفناكهم. وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[6]، أي: قابلهم»[7].

إنَّ افتراض جامعيَّة النَّصِّ القرآنيّ المتكوثر هو سبيل لإدراك هذه المعاني، ولولا هذا الافتراض المسبق، لما كان من حكم على اختيار هذه الأنساق تحت جامعٍ دلاليٍّ واحد، ولذلك كانت محاور التَّكوثر القرآنيّ لديه رحمه الله منبع ارتواء في كشف هذا المعنى، أو ذلك، وبيان الدَّلالة والقصد في الشَّرح والتَّوضيح.

السِّياق القرآنيّ تفصيل كاشف لإجمال النَّصِّ الدُّعائيّ وإشاراته

لم تكن ثنائيَّة الإجمال والتَّفصيل التي تقنَّنت من دراسة النَّصِّ القرآنيّ، إلَّا سبيلًا لتفسير كُلِّيَّات إجماليَّة في النَّصِّ، تُبقي مدارها الدَّلاليّ في دائرة الاحتمال القصديّ، إذا لم يكن لها من القرائن الدَّالة، والامارات المعيِّنة، وهي قاعدة، بلا ريب، تسبح في فلكها الأوَّل: (تفسير القرآن بالقرآن)، وما أقرب ذلك من (علم المناسبة) في الدَّرس القرآنيّ، أيضًا، فما أُجْمِل في نصٍّ، يفصِّله نصٌّ آخر، كما تقدَّم بنا القول، في مستلزمة خطاب البيان القرآنيّ.

ولقد نجد الشَّيخ الكفعمي رحمه الله يوظِّف من هذه الآليَّة امتياز تكوين في شرح النَّصِّ

(١) سورة الحج، من الآية: ٦٣.
(٢) سورة آل عمران، من الآية: ٢٣.
(٣) سورة البقرة، من الآية: ١٢٨.
(٤) سورة النجم، الآية: ٣٥.
(٥) سورة محمَّد، من الآية: ٣٠.
(٦) سورة الفرقان، من الآية: ١٢.
(٧) صفوة الصِّفات: ١٩٤.

الدُّعائيّ، بله النَّصّ القرآنيّ، فمن ذلك مثلًا في «قوله: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُكَ الْحُسْنى عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا)». قال: «أي على بني اسرائيل، والكلمة هي قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1]»[2].

أثر المسابير النَّظميَّة اللُّغويَّة والأسلوبيَّة للنَّصِّ القرآنيّ

توظيف النَّصِّ القرآنيّ مِسبارًا في توجيه فقرات النَّصِّ الدُّعائيّ

أجرى الشَّيخ الكفعمي من النَّصِّ القرآنيّ محمول تعيين للنَّصِّ الدُّعائي، في ممارسة حمل الشَّيء على أصله؛ لكماله وإبداعه؛ دفع التَّوهُّم والإلباس، ناهيك بتوجيه المتلقِّي إلى ما إنَّ هذا النَّسج النَّظميّ، والسِّياق الإبلاغيّ قريب من جماليّات النَّصّ القرآنيّ؛ ولذلك بنى من النَّصّ القرآنيّ وحدة قياس في قراءة تشريحيَّة توثيقيَّة جماليَّة إبداعيَّة كاشفة عن النَّصِّ الدُّعائيّ، مبيّنة لمعانيه، موضِّحة لدلالاته، وقد تجلَّى تأثيرها في مبانٍ متعددة، وبوظائف على أشكال مختلفة، يمكن إيرادها على نحو ما يأتي:

النَّصّ القرآنيّ قاعدة تصريفيَّة في توجيه النَّصِّ الدُّعائيّ

من ذلك مثلًا في «قوله: (وَجَعَلْتَ الشَّمْسَ ضِيآءً، وَخَلَقْتَ بِهَا الْقَمَرَ وَجَعَلْتَ الْقَمَرَ نُورًا)».

قال: «القمران: الشمس والقمر. إنْ قلتَ: وزن قَمَر على فَعَل والشَّمس على فَعْل وساكن العين أخف من متحرِّكها، فَلِمَ غُلِّبَ الثقيل على الخفيف؟ قلتُ: إنَّ القمرَ مذكَّر والشَّمس مؤنَّثة، وإذا اجتمعا غلبَ المذكَّر المؤنَّث؛ لأنَّ المذكَّر هو الأصل، قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[3] ذكَّر؛ لأنَّه أراد أباه وخالته»[4].

(١) سورة القصص، من الآية: ٥.
(٢) صفوة الصفات: ١٤٣.
(٣) سورة يوسف، من الآية: ١٠٠.
(٤) صفوة الصفات: ١٦٥.

النَّصُّ القرآنيّ قاعدة نحويَّة في توجيه النَّصِّ الدُّعائيّ

من ذلك مثلًا في «قوله: (وَبِقُوَّتِكَ الَّتي تُمْسِكُ بِها السَّماءَ اَنْ تَقَعَ عَلَى الْاَرْضِ إلَّا بِإذْنِكَ، وَتُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْاَرْضَ أَنْ تَزُولا)».

قال رحمه الله: «هنا (لا) محذوفة والمعنى: أن (لا) تقع على الأرض، وأن (لا) تزولا، وهم يحذفون (لا) في مواضع والمراد الإثبات كهذَين الموضعَين، كقوله تعالى: ﴿كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾[1]، أي: أن (لا) تحبط»[2].

النَّصُّ القرآنيّ قاعدة بلاغيَّة وأسلوبيَّة في توجيه النَّصِّ الدُّعائيّ

ومن ذلك مثلًا في «قوله: (الَّذي إذا دُعيتَ بِهِ عَلى مَغالِقِ أَبْوابِ السَّماءِ لِلْفَتْحِ بِالرَّحْمَةِ انْفَتَحَتْ، وَإذا دُعيتَ بِهِ عَلى مَضائِقِ اَبْوابِ الْاَرْضِ لِلْفَرَجِ بِالرَّحْمَةِ انْفَرَجَتْ)».

يلمح الشيخ رحمه الله، في هذه الفقرة ما في إجرائيَّة (البسط)، و(التَّكرار)، من تعيينٍ بلاغيٍّ بديعيٍّ جماليٍّ معكوسًا من أثر النَّصِّ القرآنيّ، ناهيك بتوظيفه آليَّة في التَّوضيح والشرح، قال رحمه الله: «منها: البسط: هو الاتيان باللَّفظ الكثير على المعنى القليل لكن شرطه زيادة الفائدة، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾[3]. فإنَّه لو ترك الأطناب لم يذكر: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ إيمانهم لا ينكره من يثيبهم، فلا حاجة إلى الإخبار به؛ لكونه معلومًا، لكن حسُن ذكره لفائدة إظهار شرفه والتَّرغيب فيه... وفي الفقرتين كان يمكنه عليه السلام أن يقول لو ترك الأطناب: «مغالق السَّماء لانفتحت، ومضايق الأرض لانفرجت بالرَّحمة». لكنَّه كرَّر لفظة الرَّحمة لما سيجيء بيانه... ومنها التكرار... وهو أن يكرِّر المتكلِّم الكلمة بلفظها ومعناها لتأكيد الوصف أو المدح أو غيره، كقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ

(١) سورة الحجرات، من الآية: ٢.
(٢) صفوة الصِّفات: ١٢٧.
(٣) سورة غافر، من الآية: ٧.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾»[1]. وقوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾»[2]... وفي الفقرَتَين تكرير ذكر الرحمة والأبواب وذلك لتأكيد حصول الرحمة وكشف العذاب، وتفريج المضايق وفتح الأبواب»[3].

ومن ذلك مثلًا أيضًا في «قوله: (وَخَلَقْتَ بِهَا الْكَواكِبَ وَجَعَلْتَها نُجُومًا وَبُرُوجًا وَمَصابيحَ وَزينَةً وَرُجُومًا)».

قال رحمه الله: «هذا في علم البديع يُسمَّى بالتَّقسيم، وهو استيفاء أقسام الشَّيء... ومن أمثلة التَّقسيم القرآنيَّة... قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[4]. وليس في رؤية البرق غير الخوف من الصَّواعق والطمع في الغيث... ومن أمثلته أيضًا... قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾[5] فأمَّا الإنسان: إمَّا أن لا يكون له ولد أو يكون له ولد، والولد إمَّا ذكرًا أو أنثى، أو ذكر وأنثى، وقد استوفى سبحانه في الآية جميع الأقسام»[6].

وبعد ذلك قال رحمه الله: «إذا عرفت ذلك فالتَّقسيم حاصل فيما ذكره؛ لأنَّه عليه السلام قسَّم الكواكب إلى النُّجوم والبروج والمصابيح والزينة والرجوم فاستوفى أقسامها»[7]. ثُمَّ اعترض الكفعميّ على نفسه، وقال: إنَّ من الكواكب ما يهتدى بها كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾[8]، ولم يذكر ذلك في قسمة الكواكب!. ثُمَّ أجاب

(١) سورة إبراهيم: ٤٦.
(٢) سورة المؤمنون، من الآية: ٣٦.
(٣) صفوة الصِّفات: ٩٢-٩٣.
(٤) سورة الرعد، من الآية: ١٢.
(٥) سورة الشورى، من الآيتين: ٤٩ و٥٠.
(٦) صفوة الصِّفات: ١٦٨-١٦٩.
(٧) صفوة الصِّفات: ١٦٩.
(٨) سورة الأنعام، من الآية: ٩٧.

بأنَّ كواكب الهداية داخلة في لفظي النجوم والمصابيح، فالقسمة مستوفاة حينئذٍ»[1].

علوم القرآن قاعدة في توجيه معنى النَّصِّ الدُّعائيّ - الوقف والابتداء مثلا

معلوم أنَّ علوم القرآن الكريم، فنونٌ تعتمل على تشكيل مدارك، فاعليَّتها التَّكامليَّة تمييز النَّصِّ وتفسيره، ولعلَّها وسائل ومقاييس ليست تشهد على ما في النَّصِّ من مبدأ معرفيّ، وقصد دلاليّ مراد، وهو غايتها، فحسب، بل رُبَّما تكون أيضًا محلًّا لقياس مسافات الاستنباط والنَّظر، عندما تتشخَّص مداركها في مسالك التَّوظيف والتَّطبيق. ومن هذه الفنون (معرفة الوقف والابتداء)، قال الزركشيّ (ت ٧٩٤هـ): «وهو فن جليل، وبه يعرَف كيف أداء القرآن. ويترتب على ذلك فوائد كثيرة؛ واستنباطات غزيرة. وبه تتبيَّن معاني الآيات، ويؤمَّن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات»[2].

ولقد اعتمد الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله من علوم القرآن موضوع (الوقف والابتداء) منهجًا بيانيًّا وممارسة تطبيقيَّة في شرح النَّصِّ الدُّعائيّ، فمن ذلك مثلًا في «قوله: (**وَآمَنَّا بِهِ- وَلَمْ نَرَهُ صِدْقًا- وَعَدْلًا**)». قال قدس سره: ينبغي الوقوف على (نره)، ثُمَّ يبتدأ ويقول: (صدقًا وعدلًا)؛ لئلَّا يشتبه المعنى بغيره؛ لأنَّ المقصود: (وآمنَّا به صِدْقًا وعدلًا، ولم نره)، كما أُمِرَت العلماء بالوقوف في مواضع كثيرة من القرآن كقوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾، فيقف القارئ هنا، ثُمَّ يَبتدأ ويقول: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾، فيقف، ثُمَّ يقول: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[4]، وأمثلة ذلك كثيرة»[5].

(١) صفوة الصِّفات: ١٧٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشيّ: ١/ ٢٤١. وينظر: الاتقان في علوم القرآن، السيوطيّ: ١/ ٢٣٦.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ٢٥٨.

(٤) سورة المائدة، من الآية: ٥.

(٥) صفوة الصِّفات: ٤٣٥.

المحور الثاني

ملامح التَّفسير القرآنيّ في (صفوة الصِّفات) قراءة في ميتا تفسيريَّة[1]

ألمحتُ آنفًا إلى أنَّ قراءة أيّ ممارسة تأليفيَّة نصِّيَّة تشريحيَّة، تقتضي استدعاء منطق

(١) أقامت مدوَّنات علوم القرآن وآدابه في مقدِّماتها أبجديَّة ممارسة وعمل، تقوم على مذاكرة هذه المعارف القرآنيَّة وبيان أهميَّتها في التَّوظيف والتَّفسير، لما فيه التَّفسير من هدف وغرض وغاية تقوم على أشرفيَّة موضوعه، قال الزركشيّ (ت ٧٩٤هـ): «لـمَّا كانت علوم القرآن لا تنحصر، ومعانيه لا تستقي، وجبت العناية بالقدر الممكن... فاستخرت الله تعالى- وله الحمد- في وضع كتاب في ذلك جامع لما تكلَّم الناس في فنونه، وخاضوا في نكته وعيونه، وضمَّنته من المعاني الآنيقة، والحكم الرشيقة ما يهزُّ القلوب طربًا، ويبهر العقول عجبًا، ليكون مفتاحًا لأبوابه، وعنوانًا على كتابه، معينًا للمفسِّر على حقائقه، ومطَّلعًا على أسراره ودقائقه...». البرهان في علوم القرآن، مقدِّمة المؤلِّف: ٢٣.

ولأنَّ هذه الممارسة التفسيريَّة تستلزم أصول مبادئها التكوينيَّة في كشف المراد تفاعلًا، أصبح في ظنِّي أنَّ التَّفسير في منظومة الخطاب القرآنيّ ممارسة تتجلَّى فيها جامعيَّته التَّكامل الإجرائيّ لموسوعة علوم القرآن، وليس هذا في تصوُّره الأعمّ، بل في خصوص تصوُّره الأخصّ أيضًا، وإلَّا فكيف يمكن كشف مراد النَّصِّ القرآنيّ، من غير اعتمال معارفه وعلومه جميعًا، تلك التي تكوِّن شبكة دوائر معارفيَّة تحيط بالنَّصِّ، لتكشف عن معانيه ودلالاته ومقاصده، وهذه العلوم إنَّما هي عبارة عن مفاهيم ومفاتيح صنع مجالاتها التَّكوينيّة والنقديَّة النَّظر في النَّصِّ القرآنيّ، ولا تعني، أعني: هذه العلوم بما فيها من وسائل وآليَّات، تضييقًا للنَّصِّ، بل هي منظومة معرفيَّة كما تقترح على نفسها التَّوصيف حين التَّوظيف تقترح على نفسها النقد أيضًا. يقول الأستاذ محمَّد الحيرش: «إنَّ لجوء المفسِّرين إلى الموسوعيَّة لا يترجم عندهم رغبة في الاستقصاء الجذريّ لمعاني=

تكوينها التَّأسيسيّ والنَّقديّ، وهو أمر منوط باستفتاء ما كانت تعتمد عليه من أصولٍ وكشف ما كانت تستند إليه من مرجعيَّات معرفيَّة متعدِّدة؛ صياغةَ رؤيتها، واستنباط فلسفتها في التَّصوُّرات الأوليَّة والإنجازيَّة والغائيَّة.

ولقد بدا لي من تصفُّح مدوَّنة (صفوة الصِّفات) أنَّه يقوم على منظومة معرفيَّة متعدِّدة المستويات، قرآنيَّة الطابع والتَّكوين، وقد تقدَّم بنا ذلك، اتَّخَذَت حكمًا في رصد معالم البيان والتَّوضيح في شرح دعاء (السِّمات)، بل أنَّ بعض جوانبها انفرد في تكوين خصائص وسمات تنحو نحو المعالجة التَّفسيريَّة التي تستند إلى مبادئها وآليَّاتها الأوليَّة والنِّهائيَّة المعتمدة في التَّفسير والتَّأويل القرآنيّ، ويمكن لنا اجتراح ذلك وقراءته على نحو ما يأتي:

مفاتيح المعاني النَّصِّيَّة

العلوم والآداب التي يحتاج إليها المفسِّر - دائرة معارف

أسَّس علماء العربيَّة، على مختلف مشاربهم واهتماماتهم[1] من دراسات النَّصِّ القرآنيّ أُسسًا وآليَّات شكَّلت، في تصوُّري اليسير، موسوعات/ دائرة معارف، وبمناهج استلزم إحرازها في الممارسة التَّحليليَّة؛ إدراك مراد النَّصِّ القرآنيّ: تفسيره وتأويله، وهي

=النَّصِّ، وإنَّما يترجم اقتناعًا عميقًا نسبة المعرفة التفسيريَّة التي مهما تعدَّدت المعارف المطبَّقة فيها، فإنَّها تظلُّ غير مستوفية لما يحفل به النَّصُّ ويتَّسع له من عوالم دلاليَّة وإمكانيات تأويليَّة». النَّصُّ وآليَّات الفهم: ٩٤.

(١) ينظر: مقدِّمة جامع التفاسير، الراغب الأصفهانيّ: ٩٤، والبرهان في علوم القرآن، الزركشّي: ٢/ ١٠٠، و١١٣-١١٤، والاتقان في علوم القرآن، السيوطيّ: ٤/ ١٦٢، و١٧٣، ومعترك الأقران، السيوطيّ: ١/ ٩٩، والزيادة والإحسان، ابن عقيلة المكِّيّ: ٧/ ٤١٠، ومناهل العرفان، الزرقانيّ: ٢/ ٤٥٢، ودروس تمهيديَّة في القواعد التَّفسيريَّة، عليّ أكبر المازندرانيّ: ١/ ٤٦، و١٣٩، والتمهيد في علوم القرآن، محمَّد هادي معرفة: ٩/ ٤٩، والمناهج التفسيريَّة، جعفر السبحانيّ: ٢١، والمبادئ العامَّة لتفسير القرآن الكريم، محمَّد حسين عليّ الصَّغير: ٣٦، وبحوث في منهج تفسير القرآن الكريم، محمود رجبي: ١/ ٢٧٨.

جملة من الأصول المعلوماتيَّة والمقدِّمات التَّمهيديَّة، وشبكة من المفاهيم والفنون القبليَّة تهيِّئ لمَن أراد النَّظر في النَّصِّ القرآنيّ فهمَ النَّصّ وكشف أسراره، وبيان ما فيه من معانٍ ومقاصد[1]، وبُنِيَ على فقدانها عند الإجراء مفاهيمُ من النقص، وسوء الفهم واضطراب الفكر، فضلًا عن الإثم، أعوذ بالله تعالى.

ولقد اعتمد الشَّيخ الكفعمي رحمه الله على أغلبيَّة هذه المُقدِّمات المعرفيَّة التي تشخَّصت في مسالك التَّوجيه النَّصِّيّ والتَّفسير القرآنيّ، ناهيك بالقدرة على التَّوظيف والإجراء، منها: أصول اللُّغة[2]، والاشتقاق[3]، والمباحث الأدبيَّة[4]: المباني التَّصريفيَّة والنَّحويَّة والبلاغيَّة، والفقهيَّة[5]، والكلاميَّة[6]، والرِّوائيَّة[7]،

(١) قال الزركشّي في حدِّ علم «التَّفسير: علم يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمَّد صلى الله عليه وآله وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمه. واستمدادُ ذلك من علم اللُّغة والنَّحو والتَّصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات. ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ». البرهان في علوم القرآن: ١/ ٢٥.

(٢) ينظر: صفوة الصِّفات، مثلاً: ٧٦، و١٠٩، و١١٦، و١١٩، و١٢١، و١٢٥، و١٣٤، و١٤٣، و١٥٣، و١٦٥، و١٦٨، و١٦٩، و١٧١، و١٨١، و١٨٣، و١٨٦، و١٩١، و١٩٣، و٢٠١، و٢٠٧، و٢١٨، و٢٣٦، و٢٤٦، ٢٩٩، و٣٠١، و٣٢٦، و ٣٥٧، و٤٣٨-٤٣٩، و٤٤١، و٤٤٥.

(٣) ينظر: المصدر نفسه، مثلاً: ٢٥٩، و٢٩٢، و٣١١، و٣٥٧.

(٤) ينظر: المصدر نفسه، مثلاً: ٨٨، و٨٩، و١٠٠، و١٠٥، و١١٠، و١١٢، و١٢٣، و١٢٨، و١٥٩، و١٦٨، و١٧١، و١٩٦، و١٩٨، و٢٠٠، و٢٥٩، و٢٧٨، ٣٠٩، و٤٣٢، و٤٣٩.

(٥) ينظر: المصدر نفسه، مثلاً: ١١٥-١٤٤، و٣٥٨.

(٦) ينظر: المصدر نفسه، مثلاً: و١٢١، و١٢٢، و١٥٦، و٣٢٣، و٣٥٠، و٣٥٤، و٣٥٨، و٣٧٨، و٤٣٥.

(٧) ينظر: المصدر نفسه، مثلاً: ٧٥، و١١٨، و١٢٠، و١٣٠، و١٤٢، و١٦٢، و١٩٤، و١٩٧، و٢٠٥، و٢١٠، و٢٣٧، و٢٤٤، و٢٥١، و٢٦٠، و٢٦٦، و٢٦٩، و٣٠١، و٣٠٨، و٣١٢، و٣٢٣، و٣٦١، و٣٦٥، و٣٦٩، و٣٧٨، و٣٧٨، و٣٨١.

والتَّاريخيَّة[1]، والمدوَّنات التَّفسيريَّة والتَّأويليَّة[2]، فضلًا عن كتبه ذاته[3]، وقد مرَّ بنا بعض هذه المدوَّنات المختلفة نصوصًا بنقله، وسنأتي على بعضٍ آخر منها بيانًا بحسب ممارساته، وهي أصول وآداب وثقافات، في جملتها، تُعرب عن حوزته العلميَّة، وإمكاناته ومواهبه التَّفسيريَّة والتأويليَّة، وهي بلا شكٍّ، مراصد عليا لملامح التَّفسير القرآنيّ على العموم لديه.

في المدوَّنات التَّفسيريَّة- مصادره ونقولاته النَّصِّيَّة

ألَّفت المدوَّنات التَّفسيريَّة التي اعتمدها الشَّيخ الكفعميّ في النَّظر والتَّفسير القرآنيّ، ألَّفت ثقافة تفصح عن طرائق منهج أُطِّرَ برؤية تسبقها نيَّة نقيَّة في الرصد، ليس في النَّقل والاقتباس والعرض فحسب، بل في التَّحليل والنَّقد أيضًا، ولأنَّ هذه المدوَّنات كثيرة سطَّرت أزهارًا مختلفة في حدائق (الصَّفوة)، ومثَّلت منابع عطاء اختلفت ألوانها، وتعدَّدت أجناسها، لذا سنقتصر على ذكر بعض منها، لما شكَّلته من أهمِّيَّة أعربت عنها نقولات الشَّيخ الكفعميّ نفسه، حتَّى أصبحت، في تأمُّلٍ ما، محطَّ عنايته واعتماده في الإدراك والتَّوجيه النَّصِّيّ والتَّفسير القرآنيّ، ومن هذه المدوَّنات[4]:

(١) ينظر: صفوة الصِّفات، مثلاً: ١٠٧، و١٨٨، و٢٩٨، و٣٠٨، و٣٢٠، و٣٣٧، و٣٦٤، و٣٨٢، و٣٨٤، و٣٨٨.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، مثلاً: ٧٧، و٧٨، و٨٧، و١٠٣، و١٠٨، و١١٣، و١٢٢، و١٣٢، و١٤١، ١٤٣، و١٥٩، و١٦٠، و١٦٣، و١٦٥، و١٨١، و١٨٤، و١٨٦، و١٩٠، و١٩٥، و١٩٦، و١٩٨، و٢٠٥، و٢٠٨، و٢١٦، و٢٢٢، و٢٢٩، و٢٤٢، و٢٤٤، و٢٥٠، ٢٥٧، و٢٦٩، و٣٠٨، و٣٢٠، و٣٢٢، و٣٢٤، و٣٢٦، ٣٥٠، و٣٥٢، و٣٥٩، و٣٧٠، و٣٧٣، و٣٧٧، و٣٧٩، و٣٨١، و٣٩١، و٣٩٨، و٤٣٢، و٤٣٨، و٤٤٣، و٤٤٧.

(٣) ينظر: المصدر نفسه، مثلاً: ٧٦، و٧٧، و٨٣، و١٢٥-١٢٦، و١٧٩، و١٩٧، و٢٢٧، و٢٤١، و٢٤٤، و٢٦٠، و٢٦٩، و٢٩٣، و٣٧٣، و٣٧٨، و٤٥١.

(٤) أقول: لستُ هنا بصدد بيان وتقيم ما لهذه المدوَّنات من أهمِّيَّة واعتبارات، وما فيها من خلفيَّات=

١. تفسير القُمِّيّ:

نقل الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله عن (تفسير القُمِّيّ عليّ بن إبراهيم قدس سره (ق٣هـ)) غير مرَّةٍ[١]، ومن المعلوم أنَّ هذا التَّفسير من التَّفاسير الرِّوائيَّة، وهو من أوائلها، ولعلَّ في اعتماده رحمه الله له ما يشير إلى أهمِّيَّة المدوَّنة الرِّوائيَّة في التَّفسير القرآنيّ والتَّوضيح النَّصِّيّ وبيانه، بل لعلَّ فيه رؤية لمنهجيَّة التَّفسير بالنَّقل والمأثور لديه. وقد مرَّ بنا بعض من هذه النُّقولات النَّصِّيَّة منه عنه، ونذكر منها هنا أيضًا ما يأتي:

قال رحمه الله: «في تفسير عليّ بن إبراهيم، عن الصادق عليه السلام: أنَّه ما نزل جبرئيل عليه السلام على النَّبي صلى الله عليه وآله إلَّا كئيبًا، ولم يزل كذلك منذُ أهلك الله تعالى فرعون، فلمَّا أنزل الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾[٢]، الآية، نزل ضاحكًا مستبشِّرا، فسأله النَّبي صلى الله عليه وآله عن ذلك، فقال: لمَّا أغرق الله تعالى فرعون، قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٣]، فأخذت حمأةً، فوضعتها في فيه، وقلت له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٤]، ثُمَّ خِفتُ أن تلحقه الرَّحمة، وفرقتُ ممَّا فعلتُه، فلمَّا أمرني ربِّي أن أُؤدِّي إليك ما قد علمت أنَّه كان يرضي الله فأَمِنتُ»[٥].

=وأصول ومنهجيَّات، ثُمَّ عرضها وتحليلها، بقدر ما هو إجراؤه بيان ما اعتمد عليه الشيخ الكفعميّ رحمه الله منها، إثباتًا، وكيف أنَّها كوَّنت له خلفيَّات ثقافيَّة واسعة، وأصولًا معرفيَّة عميقة في التَّحليل النَّصِّيّ والتَّفسير القرآنيّ، وامتياز ما كان يعتمده من نقولاته منها بحسب الاختيار القصديّ الذي جرت عليه أقلامه، وصحائف مكتوباته.

(١) ينظر: صفوة الصِّفات: ١٤٠، و١٦٣، و١٨٧، و٢٢٩، و٢٥١، و٣٢٤، و٣٦٩.

(٢) سورة يونس، من الآية: ٩١.

(٣) سورة يونس، من الآية: ٩٠.

(٤) سورة يونس، الآية: ٩١.

(٥) ينظر: صفوة الصِّفات: ٢٢٩-٢٣٠.

٢. الغريبين للهرويّ:

يبـدو أنَّ نصِّيّات كتاب (الغريبين في القرآن والحديث) للهرويّ: أبي عبيد أحمد بن محمَّد صاحب الأزهري (ت٤٠١هـ) كانت محطَّ عناية الشَّـيخ الكفعميّ، إذ نقل عنه كثيرًا[١]، وكثيرًا ما جمع بينه وبين نقولاته عن الطبرسّي، فضلًا عن سواه، كما سيأتي، وفي مناسبات متعدِّدة، وهو كتاب على ما فيه من لغة الغريبين/ الواضحين، فيه من التَّفسيرات ما انشـدَّ إليها الشَّيخ لاختيارها نصِّيَّات داعمة للتوجيه والتَّفسير، وممَّا نقله عنه قوله مثـلًا: «قال الهرويّ: فقوله تعـالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾[٢]، اللَّيل هنا في معنى الجمع، أي: كانوا قليلًا من الليالي ما ينامون، أي: يصلُّون في أكثرها»[٣].

وممَّا نقله عنه أيضًا، قال: «العالَـمون: قال الطبرسيّ في جوامعه: العالَم اسم لأُولي العِلم من الملائكة والثَّقلين. وقيل: هو اسم لما يُعلم به الصَّانع من الجواهر والأعراض. وقـال الهـروي في غريبيـه: العالَمون: هـو الجن والأنـس، بدليل قولـه تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٤]»[٥].

وعنه أيضًا، قال: «قال الهرويّ في غريبيه: وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[٦]، أي: عطفًا وصنعًا. وقوله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾[٧]، أي: رزق من

(١) ينظـر: صفـوة الصِّفـات: ٨٧، و١٠٩، و١١١، و١١٣، و١١٤، و١٣١، و١٦٥، و١٨١، و٢٢٢، و٢٣٠، و٢٤٦-٢٤٧، و٢٤٩، و٢٥٨، و٣١٨، و٣٦٢، و٣٨١، و٣٨٢، و٣٩٤، و٤٢٦، و٤٣٢، و٤٤٤، و٤٥٥.

(٢) سورة الذاريات، من الآية: ١٧.

(٣) صفوة الصِّفات: ١٨١.

(٤) سورة الفرقان، من الآية: ١.

(٥) صفوة الصِّفات: ١٣١-١٣٢.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٧) سورة الإسراء، من الآية: ٢٨.

ربِّك، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾[2]، أي: مطرًا وخصْبًا بعد مجاعة، وأراد بالنّاس الكافرين هنا. وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[3]، أي: عطفًا والرُّحم: العطف والرحمة...»[4].

٣. التِّبيان، للشيخ الطوسيّ:

ولم يترك الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله إيراد نصٍّ من (التِّبيان في تفسير القرآن) للشيخ الطوسيّ أبي جعفر محمَّد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)، إذ ذكره، قائلا رحمه الله: «قال الشَّيخ في تبيانه: في تفسير قوله تعالى ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾[5]، فقال: الرجل هو إنسان خارج عن حدِّ الصَّبي من الذُّكور، وكلُّ رجلٍ إنسان، وليس كلُّ إنسانٍ رجلًا؛ لأنَّ المرأة إنسان»[6].

٤. مجمع البيان وجوامع الجامع، للطبرسيّ:

يبدو لي من قراءة الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله لـ(مجمع البيان)، و(جوامع الجامع في تفسير القرآن)، للشيخ الطبرسيّ: أبي عليّ الفضل بن الحسن، الملقَّب بأمين الإسلام (ق٦هـ)، أنَّه رحمه الله ما جاء على أمرٍ ذي أهمِّيَّة، وكان له فيهما من تفسير وتأويل، أو توضيح وبيان من لغةٍ، أو رواية، أو تاريخ وحكاية، إلَّا ودلَّ عليه منهما بدليل، وأشار إليه منهما ببرهان، بل أنَّه عقد على نصِّيَّاتهما توضيحاتٍ لموضوعاتٍ واستنباطاتٍ، تجعل المتلقِّي يتصوَّر أنَّهما في موضع التَّقدير والإكبار لديه ما تنعكس عليه ملامحهما المنهجيَّة والموضوعيَّة

(١) سورة هود، من الآية: ٩.
(٢) سورة يونس، من الآية: ٢١.
(٣) سورة الكهف، من الآية: ٨١.
(٤) صفوة الصِّفات: ٢٥٨.
(٥) سورة الأعراف، من الآية: ٦٢، والآية: ٩٦.
(٦) صفوة الصِّفات: ١٩٦.

في التَّشريح البيانيّ والتَّفسير القرآنيّ؛ وذلك لكثرة ما ينقل عنهما، ويأخذ منهما[1]، إنَّه من أهمِّ مرجعيَّاته الأولى. بل هو كذلك في جلِّ مؤلَّفات الشَّيخ الطبرسيّ؛ لأنَّه، أعني الكفعميّ، لم يكتفِ بما ينقل عنه منهما، بل ممَّا كان للشيخ الطبرسيّ من غيرهما[2] أيضًا، ولعلَّ نصًّا منهما يُظهر ما نحن فيه من تمثيل ودلالة، ناهيك بما مرَّ:

قال رحمه الله: «التَّجلِّي... عبارة عن ظهور اقتداره تعالى للجبل وتصدُّر أمره وإرادته، كما ذكره الطبرسي»[3]. وقال رحمه الله: «قال الطبرسيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[4]، إنَّ الفرق بين الخلق والجعل، أنَّ الخلق فيه معنى التَّقدير، والجعل فيه معنى التَّصيير كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء... أو نقله من مكان إلى مكان، ومن ذلك: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[5]، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾... والمعنى: أنَّه تعالى خلق السماوات والأرض وأنشأ اللَّيل والنَّهار، وما لا يقدر عليه سواه... والضِّياء: قال الطبرسيّ: هو أعظم من النُّور»[6].

وقال رحمه الله: «وعند أهل الكتاب: أنَّ التابوت حمل إلى ناحية كرزيم من ناحية طور سيناء، فكانت تظلُّه بالنَّهار غمامة ويشرق عليه بالليل عمود من نار، وكان يدلهمُّ عليه الطريق ليلًا. قال الطبرسيّ: كان الغمام يظلُّ بني إسرائيل من حرِّ الشمس لقوله تعالى:

(١) ينظر: صفوة الصِّفات: ٧٨، و١٠٨، و١١٣، و١٣٤، و١٣١، و١٤٠، و١٤١، و١٥٨، و١٥٩، و١٦١، و١٩٥، و١٩٨، و٢٠٨، و٢١٦، و٢١٧، ٢٢١، ٢٢٩، و٢٣٠، ٢٦٩، ٢٨٢، و٣٠٨، و٣١٥، ٣٢٢، و٣٢٣، و٣٥٠، و٣٥٢، و٣٦٠، و٣٦٦، و٣٧٠، و٣٧٣، و٣٧٧، و٣٧٩، و٣٨٠، و٣٨٧، و٣٩١، و٣٩٥، و٤٠٠، و٤١٠، و٤١٧، و٤٤٧، و٤٥٤، و٤٥٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٨٦، و٣٢٦، ٣٧١.

(٣) المصدر نفسه: ٣٥٠.

(٤) سورة الأنعام، من الآية: ١.

(٥) سورة الأعراف، من الآية: ١٨٩.

(٦) صفوة الصفات: ١٥٨-١٥٩.

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾[1]، ويطلع لهم بالليل عمود من نور يضيء لهم»[2].

وقال: «وفي جوامع الطبرسي: أنَّ مدين مسيرة ثمانية أيام من مصر»[3].

وقال: في معرض حياة النَّبيّ، وسنواته، قال: وفي العاشرة: حجَّ حجَّة الوداع، وفيها كان النَّصُّ على عليّ، ونزل قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾. قال الطبرسي: وهي آخر فريضة أنزلها الله تعالى: ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾[4]، أي: بولاية عليّ بن أبي طالب، روى ذلك عن الباقر»[5].

٥. مفاتيح الغيب، للرازي:

وكان من مرجعيَّاته التفسيريَّة أيضًا (مفاتيح الغيب) المُسمَّى (التفسير الكبير) لأبي عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسن الملقَّب بفخر الدِّين الرازي (ت٦٠٦هـ)، إذ نقل عنه نقولات نصِّيَّة[6] مفيدة لمسألة، أو موضوع، فمن ذلك مثلاً قوله: «قلتُ: وهنا فائدتان أخراوتان [كذا]، لم يذكرها المقداد في تجويده، ذكرهما الرازي في كتابه مفاتيح الغيب، الأولى: أنَّ قولهم: «القتل أنفى للقتل»، ظاهره يقتضي أن يكون الشَّيء سببًا لانتفاء نفسه، وهو محال بخلاف قوله تعالى: ﴿ ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[7]، فإنَّه ليس كذلك. والثانية: قولهم: «القتل أنفى للقتل» لا يفيد إلَّا الردع، بخلاف الآية، فإنَّها تفيد الردع عن القتل وعن الجراح فهو أجمع الفوائد»[8].

(١) سورة البقرة، من الآية: ٥٧.
(٢) صفوة الصِّفات: ٢٠٦.
(٣) المصدر نفسه: ٢٠٨.
(٤) سورة المائدة، من الآية: ٣.
(٥) صفوة الصِّفات: ٤١٧.
(٦) ينظر: المصدر نفسه: ١٠٣، و١٩٠، و٣٢٠.
(٧) سورة البقرة، من الآية: ١٧٩.
(٨) صفوة الصِّفات: ١٠٣.

وعنه أيضًا قال رحمه الله: «ذكر الرازي في مفاتيح الغيب: أنَّ النَّبيّ صلى الله عليه وآله لمَّا عرج به إلى السَّماء رأي ملائكة في موضع بمنزلة سوق يمشي بعضهم تجاه بعضهم. فسأل النبيّ صلى الله عليه وآله جبرئيل عليه السلام: إلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري إلَّا أنِّي أراهم منذ خُلِقت، ولا أرى ملكًا قد رأيته قبل ذلك...»[1]. الحديث.

٦. كنز العرفان، للمقداد السيوريّ:

وقد كشفت قراءته أيضًا لـ«كنز العرفان في فقه القرآن» لجمال الدين المقداد بن عبد الله السِّيوريّ (ت٨٢٦هـ)، عن تأسيس استدراك موضوعيّ، ومنبعًا لتوجيه الفروق والآراء، في مواضع[2]، منها مثلاً قوله رحمه الله: «قال المقداد في كنزه: والفرق بين الشاهد والشهيد، أنَّ الأوَّل بمعنى الحدوث والثاني بمعنى الثبوت، فإنَّه إذا تحمَّل الشهادة، فهو شاهد باعتبار حدوث تحمُّله، وإذا ثبت تحمُّله لها زمانَين أو أكثر فهو شهيد، ثُمَّ يطلق الشاهد عليه بعد تحمُّله مجازًا، تسميةً للشيء بما كان عليه، كما يُطلق الشهيد قبل تحمُّله بها مجازًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ﴾[3]. والسِّين للطلب، أي: اطلبوا شهيدين، والطلب إنَّما يكون قبل حصول المطلوب»[4].

ومن ذلك أيضًا قوله رحمه الله: «قال الفرَّاء: العدل بالفتح ما عادل الشيء من غير جنسه... وقال المقداد في كنزه: إنَّه يستعمل الكسر في المساوي [كذا] مقدارًا والفتح في المساوي حكمًا، وإن لم يكن من جنسه، وقُرِئَ شاذًّا ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾[5]، أي: عِدل الإطعام بكسر العين»[6].

(١) صفوة الصِّفات: ١٩٠.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١١٣، و٣٩٨، و٤٣٢، و٤٣٩.
(٣) سورة البقرة، من الآية: ٢٨٢.
(٤) صفوة الصِّفات: ٤٣٢.
(٥) سورة المائدة، من الآية: ٩٥.
(٦) صفوة الصِّفات: ٤٣٩.

٧. زبدة البيان، للطبرسيّ:

ولـه﵀ أيضًا من (زبدة البيان وإنسـان الإنسـان المنتزع من مجمع البيان)، للشـيخ زين الدين أبي محمَّد عليّ البياضيّ العامليّ صاحب المسـتقيم (ت ٨٧٧هـ)[١]، له نصِّيَّات روائيَّة طويلة وقصيرة، ومجالات تفسيريَّة، اعتمدها[٢] في الشرَّح والتَّوضيح. فمن ذلك مثـلًا قوله﵁: «وفي كتاب الزبدة عن الإمام الباقر﵇: **هـذا التابوت هو الذي أنزله الله تعالى على أمِّ موسى، فوضعته فيه، وألقته في البحر، فلمَّا حضرت موسى الوفاة وضع فيه الألواح ودرعه، وما كان عنده من آثار النبوَّة وأودعه وصيَّه بوشع بن نون، فلم يزل بنو إسرائيل تتبرَّك به، وهم في عزٍّ وشرفٍ حتى اسـتخفُّوا به فكان الصبيان تلعب به، فرفعه الله تعالى عنهم**»[٣].

ومنـه أيضًـا قوله﵁: «وفي زبـدة البيـان: أنَّ الله تعالى خلق النهار قبـل الليل، قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾[٤]، أي: قد سبقه النهار»[٥].

التَّراكم النَّقليّ، سلالم نصِّيَّة معرفيَّة واسعة الآفاق

تضافر النقولات، اتِّجاهات في القراءة والنَّظر في مشترك موضوعيّ

قد تتراكم نقولات الشَّـيخ الكفعميّ﵁ وتتضافر ومسـتنداته وقراءاته في مسـألة، أو موضوع واحد من المدوَّنات التَّفسـيريَّة السَّـابقة، وسـواها؛ وذلك لتدعيم الأفكار المطروحـة إحداهما مع الأُخرى، وهو منهج ومخطَّط إسـتراتيجيّ كثيرًا ما سـار عليه﵁

(١) هذا من ترجيحات الأستاذ المحقِّق، ينظر: صفوة الصفات، هامش التحقيق: ١٨٤.
(٢) ينظر: صفوة الصِّفات: ١٨٤، و١٠٦، و٢٠٥، و٢٥٠، و٢٥١، و٣٧٤.
(٣) صفوة الصِّفات: ٢٠٥.
(٤) سورة يس، من الآية: ٤٠.
(٥) صفوة الصِّفات: ١٨٤-١٨٥.

في طيَّـات (الصَّفوة)، وعلى مسـتويات ومنـازل مختلفة، ما يكشـف امتياز حضور هذه المرجعيَّـات والمدوَّنات المعرفيَّة المتعدِّدة الطابع الفهـرسيّ والموضوعيّ في ذهنه الكريم، ناهيك باصطفاء ما يراه مناسبًا، ليشكِّل عنده نظرًا في ترك ما عداه في التَّأصيل وإبلاغيَّة التَّثقيف.

فمـن ذلك مثلًا قوله: «قال الجوهريّ: البأسـاء والضَّرَّاء: الشِّـدَّة، وهما اسـمان مؤنَّثـان. وفي جوامع الطبرسيّ: البأسـاء: الفقر والشِّـدَّة، والضَّرَّاء: المـرض والزَّمانة. وفي الغريبـين: البأسـاء في الأموال وهو الفقر، والضَّرَّاء، وهـو في الأنفس، وهو القتل. وقريب منه قول المقداد في كنزه: وهو أنَّ البأساء ما يتعلَّق بالمال كالفقر، وغيره. والضَّرَّاء ما يتعلَّق بالبدن كالعمى، والزَّمانة وغيرهما»[1].

وقولـه أيضًا في مقولـة «(الناس): قال الجوهريّ: الناس قـد يكون من الإنس، ومن الجـنِّ. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾[2]، والمـراد: الثَّقَلين. قال صاحـب الألفاظ: وجمـع الناس أنـاسي. وقال ابـن خالويه: ليس كذلـك؛ لأنَّ واحد الأناسي إنسي، كما ترى، قال الفرَّاء: وجائز أن يكون إنسـانًا من جمعه أَنَاسِين، ثمَّ تَحذِف النون وتُدغِم بعد أن تقلبها ياءً. وقال الطبرسيّ: الأناسي جمع إنسي، أو إنسان، كالظرابيّ في جمع الظربان على قلب النون من أناسـين، وظرابين ياء. وفي كتاب الحماسـة: قال ابن عبَّاس إنَّما سُـمِّي آدم إنسـانًا؛ لأنَّه عُهِدَ إليه فنسى، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ ﴾[3]. واحتذى أبو تمَّام قول ابن عبَّاس، فقال:

لا تنسينَّ تلك العهودَ فإنَّما
سُمِّيتَ إنسانًا؛ لأنَّـك النَّاسي

(١) صفوة الصِّفات: ١١٣.
(٢) سورة السبأ، من الآية: ٢٨.
(٣) سورة طه، من الآية: ١١٥.

قلتُ: في كتاب كيمياء الإشراق أنكر ذلك، وقال: إنَّ في طبيعة الإنسان المؤانسة مع بني نوعه، ولذلك سمِّي إنسانًا، ومَنْ قال: سُمِّيتَ إنسانًا لأنَّك ناسي، ظنَّ أنَّه مشتقٌّ من النسيان، وقد أخطأ. وفي سرائر ابن إدريس: الإنسان اسم جنس يقع على الذكر والأنثى بغير خلاف لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[1]، ولم يَرِد تعالى الذكور دون الإناث...»[2]، إلى مصادر ومراجع أخرى تمثِّل فهرسة (ببليوغرافيا) لمكتبة الشَّيخ رحمه الله الموسوعيَّة الثَّقافيَّة، وهي تطول.

أقول: هل يوحي الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله بهذا التَّراكم المعرفيّ إلى المتلقِّي بأنَّه يعتمد على منهج في البيان والإيضاح، وطريقة في التَّفسير القرآنيّ، محدِّدًا إيَّاه وبحسب ما يشتقُّ منه من آليَّات ووسائل، وما تشير إليه هذه، ناهيك بما يُلاحظ من جهات الاستناد المرجعيّ، من أنَّه يسلك طريقة التَّفسير بالمأثور: تفسير النَّصِّ بالنَّصِّ، مشوبة بالعقل والاجتهاد والنَّظر؟!، وهل هي دعوة منه رحمه الله إلى تكامليَّة المناهج المعرفيَّة في قراءة النَّصِّ الدِّينيّ، فضلًا عن تعدُّديَّة القراءات، حين نجد ممارسته الكاشفة عن المعنى والدَّلالة النَّصِّيَّة فيها من بحث: لغويّ وبيانيّ وبلاغيّ، وروائيّ، وتاريخيّ، وسواها؟.

إنَّ ما تعيَّن من إجراءاته قدس سره الكثيرة، وما في مسالك التَّوظيف ومستوياتها المتعدِّدة الملحوظة، ليشي أنَّه ما انفكَّ يجري على سبل التَّفسير القرآنيّ المُتبَع، طرائق ومناهج وآليَّات، بل أنَّه ليخبر عنها صراحةً وضمنًا، مؤكِّدًا مركزيَّة النَّصّ الذي يقوم على لغته، وما فيها من منازل بيانيَّة كاشفة عن ذلك المكنون المعرفيّ الذي ينطوي عليه النَّصُّ القرآنيّ.

إنَّها- كما تقدَّم بنا القول- رؤية مركزيَّة، لم تكن أن تقع في هامش، بل هو نواة في فلك، دارت حوله نصوص مختلفة، وطافت في رحابه قراءات متعدِّدة، لم تجعل منه

(١) سورة العصر، الآية: ٢.

(٢) صفوة الصفات: ١٩٥-١٩٦.

إلَّا محورًا، لا حاشية تعليق وشرح وتوثيق، بل قطبًا تدور حوله وفيه مقدِّماته وأصول إدراكاته؛ فهمَ مراداته.

ملامح من المناهج التَّفسيريَّة

المناهج التَّفسيريَّة- في ظنِّي اليسير- حمولة مقولات في القراءة والنَّظر، تعمل على تأسيسها وظائف مقنَّنة في جملة من القواعد والفنون الاستدلاليَّة عند اتِّباع طريقة معيَّنة في الكشف عن المعاني وبيان المراد النَّصِّيّ، وهي في نظر العلماء والدَّارسين[1] بين مقولَتين: الأولى يقوم تعيينها على واقع: المنقول، والمعقول، ولكلٍّ منهما صور: القرآنيّ والروائيّ واللغويّ البيانيّ... وأمَّا المقولة الأخرى، فتنفي الحصر بعدد معيَّن إلَّا على سبيل الاستقراء الناقص، بل تعمل على تخطئته أيضًا؛ لأنَّها أعني: المناهج بحسبها، متأخِّرة وضعًا على التَّفسير[2].

والذي يبدو لي أنَّ مدار التَّوظيف، قد يكون الوسيط بين كلِّ هذه الإجراءات المنهجيَّة؛ وعلى أيِّ أمرٍ، فالقول بالموضوع التَّقديريّ، والتَّحليل النَّقدي له محلٌّ آخر؛ لأنَّ الغرض ثمَّة بيان ما يمكن رصده من الملامح العامَّة من الطرائق والمناهج التَّفسيريَّة التي وظَّفها الشَّيخ الكفعميّ ﷺ في إجراءاته، وسار عليها في الممارسة التَّفسيريَّة، على افتراض سؤال: هل يمكن أن نقف على مناهج للشيخ الكفعمي ﷺ في التَّفسير، وهل

(١) ينظر: والفوز الكبير في أصول التفسير، الدِّهلويّ: ١٢٥، والتَّمهيد في علوم القرآن، محمَّد هادي معرفة: ١٠/ ٢٢، والمناهج التَّفسيريَّة، جعفر السبحانيّ: ٧، ودروس تمهيديَّة في القواعد التفسريَّة، عليّ أكبر المازندرانيّ: ١/ ٨٣، ومنطق فهم القرآن، كمال الحيدريّ: ١/ ٤١، و٤٥، وأصول التَّفسير والتَّأويل، كمال الحيدريّ: ٨، والمنهج التَّفسيريّ عند العلَّامة الحيدريّ، طلال الحسن: ٩، والمبادئ العامَّة لتفسير القرآن الكريم، محمَّد حسين عليّ الصَّغير: ٨٧، والميزان في تفسير القرآن، مقدِّمة جوادي آملي: ٩١.

(٢) ينظر: منطق فهم القرآن، كمال الحيدريّ: ١/ ٤٦.

يمكن أن نستنبط من نقولاته ومرجعيَّاته، ونكشف من المدوَّنات التَّفسيريَّة والمعارفيَّة التي اعتمدها على ذلك؟.

أقول: على الرّغم من كون المتقدِّم منها يُفصح عنها، ولكن يمكن لمح تمثُّلات هذه بنحو عام على ما يأتي:

١. في تفسير القرآن بالقرآن:

ويتجلَّى هذا بداهة في العلاقات النَّصِّيَّة ومقاربة النَّصِّ بالنَّصِّ الذَّاتيّ التي تقوم على قاعدة: أنَّ ما أُجْمِل في موضع يفسِّره آخر، أو التوالي النَّصِّيّ وما فيه من الحمليَّات، وهذا صائر في إجراءاته البيانيَّة والتَّفسيريَّة، وقد تقدَّم منه ما في تفسير (الكلمة/ الكلمات)، وما اعتمده من قول سابقًا، وذلك مثلًا في قوله تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[1].

قال: «وقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾، أي: ما أكبرها كلمة،... والكلمة هي قولهم: ﴿ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[3].

قال مستندًا: «قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾. قال الهرويّ: كلُّما دعا الله الناس إليه فهو كلمة. وقال الطبرسيّ: نفس الكلمة

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٤-٥.
(٢) صفوة الصِّفات: ١٣٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

هنا هي قوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾»[1].

ومن ذلك أيضاً ما قاله في: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾[2]، الكلمة هي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[3]، سمَّاها (كلمة) وإن كانت (كلمات) وعدَّ هذه بها؛ لأنَّها لـمَّا انتُظِمَت في معنى واحدٍ كانت في حكم كلمة مفردة»[4].

ولعلَّ منه أيضاً إجراءه في مقايسة استعمال «لا» في نصّين بموضعين، حين قال: «كما استُعْمِلَت [يعني: «لا»] مضمرة، فقد استُعْمِلت زائدة، كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[5]، فـ«لا» هنا زائدة، بدليل قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ﴾[6]»[7].

٢. في التَّفسير الرِّوائي:

لا شكَّ في أنَّ نسبة هذه الممارسة تقوم على ما في توظيف النُّصوص الحديثيَّة المعتمدة في التَّفسير، ومقاربة النَّصِّ بالنَّصِّ الغيريّ. ولا غرابة في أن يقوم عليه كتاب (الصَّفوة)، منهجًا، فالحديث هو المصدر الثاني في التَّفسير بالمأثور عند الشَّيخ الكفعميّ، وقد مرَّ بنا كيف أنَّه كان يستند إليه في تصحيح بعض الأقوال والتَّفسير، وسيأتي بعضه أيضًا، فمن ذلك مثلًا في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾[8].

(١) صفوة الصِّفات: ١٣٤.
(٢) سورة الصَّافات، الآية: ١٧١.
(٣) سورة الصَّافات، الآيتان: ١٧٢-١٧٣.
(٤) صفوة الصِّفات: ١٤٠.
(٥) سورة الأعراف؛ من الآية: ١٢.
(٦) سورة ص، من الآية: ٧٥.
(٧) صفوة الصِّفات: ١٢٨.
(٨) سورة هود، من الآية: ١١٤.

قال رحمه الله: «عن ابن عبّاس رضي الله عنه: إنَّ صلاة الصبح لا من الليل، ولا من النهار، فما لم تطلع الشمس عنده، فليس بنهار. قلتُ: ويؤيِّد قوله ما ذكره عليّ بن إبراهيم في تفسيره: أنَّ بعض علماء النصارى سأل الباقر عليه السلام عن ساعة لا من الليل، ولا من النهار. فقال عليه السلام: **هي ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس**. فقال النصرانيّ: فإذا لم يكن من ساعات الليل، ولا من ساعات النهار، فمن أيِّ الساعات هي؟ فقال: **هي من ساعات الجنَّة، وفيها يفيق مرضانا أهل البيت**»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2].

قال رحمه الله: «قال ابن عبّاس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾، إنَّه: كلَّما اشتهى أهل الجنَّة شيئًا، قالوا: ﴿ سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾، فيجيئهم كما يشتهون، فإذا طُعِموا قالوا: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، فذلك ﴿ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ ﴾»[3].

ومن ذلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾[4].

قال رحمه الله: «قيل: لو لم يقل سبحانه: ﴿ وَسَلَٰمًا ﴾؛ لأهلكته ببردها، ولو لم يقل: ﴿ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾، لكان بردها باقيًا إلى يوم القيامة. وعن الصادق عليه السلام: إنَّه قال حين رُمِيَ به في النار: يا الله، يا واحد، يا أحد، يا صمد، يا من لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. فحسرت عنه النار، ومعه جبرئيل عليه السلام، وهما يتحدَّثان في روضة خضراء»[5].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾[6].

(١) صفوة الصِّفات: ١٨٧-١٨٨.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٠.
(٣) صفوة الصِّفات: ٢٤٨.
(٤) سورة الأنبياء، من الآية: ٦٩.
(٥) صفوة الصِّفات: ٣٠٧.
(٦) سورة ق، من الآية: ٣٩، والآية: ٤٠.

قال رحمه الله مستندًا أيضًا: «وروي عن عليّ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ ٱلسُّجُودِ﴾ أن ﴿وَأَدْبَرَ ٱلسُّجُودِ﴾ الركعتان بعد المغرب، و﴿وَإِدْبَرَ ٱلنُّجُومِ﴾ الركعتان قبل الفجر»[1].

٣. في التَّفسير اللُّغويّ- البيانيّ:

أدرك الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله أنَّ للنَّصِّ القرآنيّ وسياقه النَّظميّ والأسلوبيّ لغة ذات نسق مخصوص في الاستعمال والوضع، ليست كأيِّ لغة، بل أنساقها شبكة قواعد من الانتقاء والاختيار الدَّقيق في النَّظم والتَّكوين الإرساليّ القصديّ، وهي بلا مريَّة إنَّما تقوم على نظامها الاعتباريّ الإشاريّ منه والرمزيّ والإحاليّ، ولذلك استند إلى قوانينها في توجيه النَّصِّ والتَّفسير، ولعلَّ مقولاته وذائقته الجماليَّة والفنيَّة والأسلوبيَّة، وما في التَّوظيف الإجراء، فضلًا عن مرجعيَّاته اللُّغويَّة: الصَّرفيَّة والنَّحويَّة والبلاغيَّة والدَّلاليَّة، دليل على التَّمثيل، وقد مرَّ بنا بعض منها، ناهيك بقواعدها التَّوجيهيَّة التي كان يعتمد عليها في حوكمة النَّصِّ، وكيف أنَّه اتَّخذ من مقاييس النَّصِّ القرآنيّ قواعد لغويَّة وأسلوبيَّة جماليَّة في توجيه النَّصِّ الدُّعائيّ، وسنقف أيضًا على بعض آخر منها في خصائص الوجوه والنَّظائر اللُّغويَّة القرآنيَّة والبلاغة القرآنيَّة، وما فيها من تنظيمات نسقيَّة في علوم القرآن لديه.

وأمَّا تمثيله لأمثلة التَّفسير اللُّغويّ والبيانيّ، فمن مثلًا قوله رحمه الله: «أمَّا لفظة (العبد)، فنقول: العبد خلاف الحرِّ. وأصل العبوديَّة: الخضوع والتذلل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[2]، أي نطيع خاضعين متذللين. وطريق معبَّدٌ إذا كان مذلَّلاً للسالكين. والعبادة الطاعة، والعَبَد بالتحريك: الغضَب والآنفة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ

(١) صفوة الصِّفات: ٣٦١.

(٢) سورة الفاتحة، من الآية: ٥.

﴿وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾[1]، أي: الآنفين الجاحدين»[2].

ومنه أيضًا قوله: «وقوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾[3]، أي: المصلِّين... وقيل: في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾، أي: المنزِّهين لله، والتسبيح التنزيه، وسبَّح الله: نزَّهه... وقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾[4]، أي: أنزِّهُكَ يا الله من كلِّ سوء»[5].

وكذا في قوله مستندًا في بعضه: «قال الهرويّ في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾[6]. قال: هي شهادة أن لا إله إلا الله، وقوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[7]، أي: استغيثوا بآلهتكم. ومنه دعوة الجاهليَّة، وهو قولهم: يا آل فلان، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا﴾[8]، أي: وإن تستغث نفسٌ قد أثقلتها ذنوبها إلى أن يحمل غيرها عنها شيئًا لم يحكم لها به. قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ مَّا يَدَّعُونَ﴾[9]، أي: يتمنون، والعرب تقول: ادعو عليّ، أي: تمنَّه. وقوله تعالى: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾[10]، أي: تعذِّب، وقيل: تنادي، وقال أعرابيّ لآخر: دعاك الله، أي: عذَّبك. وقيل: دعاك الله، أي: أماتك»[11].

وأمَّا أمثلة التَّمثيل البيانيّ والبلاغيّ، فمن ذلك مثلًا، وهو يتحدَّث عن الإبداع،

(١) سورة الزُّخرف، من الآية: ٨١.
(٢) صفوة الصِّفات: ١٩٩.
(٣) سورة الصَّافَّات، الآية: ١٤٣.
(٤) سورة يونس، من الآية: ١٠.
(٥) صفوة الصِّفات: ٣٥٩.
(٦) سورة الرعد، من الآية: ١٤.
(٧) سورة البقرة، من الآية: ٢٣.
(٨) سورة فاطر، من الآية: ١٨.
(٩) سورة يس، من الآية: ٥٧.
(١٠) سورة المعارج، الآية: ١٧.
(١١) صفوة الصِّفات: ٢٤٦-٢٤٧.

قولـه رحمه الله: «وهو أن يـأتي في البيت الواحد أو الفقرة عدَّة ضروب مـن البديع، وربَّما كان في الكلمة الواحدة ضربان فصاعـدًا من البديع كقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]، فإنَّ في الآية الكريمة: ١. المناسبة بين ﴿ ٱبۡلَعِي ﴾ و ﴿ أَقۡلِعِي ﴾ ٢. والمطابقة بذكر: الأرض والسَّـماء. ٣. والمجاز في قوله تعالى: ﴿ وَيَٰسَمَآءُ ﴾. والمراد: مطرها. ٤. والاسـتعارة في قوله تعالى: ﴿ أَقۡلِعِي ﴾. ٥. والإشارة في قوله تعالى: ﴿ وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾... ٦. والتمثيل في قولـه تعالى: ﴿ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾، فإنَّه تعالى عبَّر عـن هلاك الهالكين، ونجاة النَّاجين بلفظ بعيد عن المعنى. ٧. والإرداف في قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَوَتۡ ﴾، فإنَّ حقيقة ذلك جلسـت، فعـدل عنـه إلى مرادفه، لما في الاسـتواء من الإشـعار بجلوس متمكـن لا زيغ فيه، ولا ميل، وهذا لا يحصل في لفظة: «جلسـت، وقعـدت». ٨. والتَّعليل؛ لأنَّ غيض الماء علَّة الاسـتواء. ٩. وصحّة التَّقسيم، إذ استوعب سـبحانه أقسام أحوال الماء: حالة نقصه إذ ليس إلَّا احتباس ماء السماء، واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغيض الماء الحاصل عـلى ظهرها. ١٠. والاحتراز في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، إذ رُبَّما يوهم أنَّ الهلاك لعمومه، رُبَّما شمل غير مستحقِّه»[2].

أقول: هل من نظرٍ في هذا المسـتوى البيانيّ البلاغيّ التَّفسـيريّ، عزَب عن التَّحليل الكفعمـيّ، ولقد يقـف المتأمِّل في دهشـةِ المأخذ، وروعـة الإدراك، وقـدرة الاقتناص المخصـوص بالتَّوظيـف والتَّوصيف، إنَّها تكامليَّة فهم منهجـيّ، تحيط بالنَّصِّ من جميع جهاتـه، وما تهدأ تتوزَّع عليه الوظائف، فتأخذ منه اشـتغالها المتحيِّز في التَّحليل النَّصِّيّ، كاشـفة عـن إجراء لم تكن ثمَّة عتبة من سـلم موضوعيّ، إلَّا ارتقاهـا، ولا زاوية إبداعٍ نصِّيٍّ، إلَّا فضَّ عنها قناعها الدَّلاليّ في الشَّرح والتَّفسير.

(١) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٢) صفوة الصِّفات: ٩٤-٩٥.

٤. التَّفسير الآفاقيّ - الأنفسيّ بالتَّدبُّر والتَّفكُّر:

يبدو من هذا المنهج أنَّه يقوم على مدارك التأمُّل وإعمال الذِّهن والتَّدبُّر في المخلوقات الآفاقيَّة الأنفسيَّة، بل ومحاكاة ما في الواقع من تصوُّرات تشير إلى صانعها العليم الحكيم، والقدرة على الإحالة من حالة النَّظر اليسير إلى الشُّعور بالإيمان العميق، ثُمَّ الكشف والحضور، ولعلَّها من أنفع المناهج العقيدة والأدلَّة التي تتَّصف بالإثباتيَّة، وهو ذلك الذي يُسمَّى «برهان النَّظم»[١].

ولقد نلمح شيئًا من ذلك في منهجيَّات الشَّيخ الكفعميّ ونقولاته، بل إيمانه بها، والشعور بحسب ما يُلحظ بأهميَّتها العليا، من ذلك مثلًا قوله: «قال ورَّام في كتابه نزهة الناظر: والعجب ممَّن يرى خطًّا حسنًا أو نقشًا على حايط [كذا] فيستحسنه، ويقول: ما أحذق صانعه، ولا يتفكَّر في عجائب الله ويغفل عن صانعها ومصوِّرها؟!. قال: ومن فاته عجائب السَّماوات فقد فاته الكلُّ تحقيقًا، فإنَّه تعالى قد عظَّم أمر السماوات في كتابه والشمس والقمر والنجوم، وأقسم بها. وبالجملة فما من مخلوق إلَّا وفيه وجه الحكمة، وقد مدح الله سبحانه المتفكِّرين في قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[٣]. أي: دلالات دالَّة على الصانع، وكمال قدرته، وبدائع حكمته بما فيها من السهول والجبال والبرِّ والبحر، وأنواع النبات، والثمار المختلفة ألوانها وطعومها وروائحها، الموافقة لحوائج ساكنيها ومصالحهم، وما ركب في بواطن النفوس، وظواهرها من عجائب الفطر، وبدائع الحكم من اللون والأنس والنطق والصور والطبايع [كذا] واختلافها في كلِّ إنسان والإبصار والأسماع وسائر الجوارح، ما رتَّب فيها من فنون الحكمة.

(١) الإلهيَّات، جعفر السبحانيّ: ١/ ٣٣.
(٢) سورة آل عمران، من الآية: ١٩١.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٢٠.

وفـــي كـــلِّ شـــيءٍ لـــه آيـــة
تـــــدلُّ عـــلـــى أنَّـــــه واحـــد

فانظر إلى البعوض هو أصغر الحيوانات كيف خلقه الله تعالى، له الخرطوم الطويل، وجعله محدَّد الرأس، وقوَّاه على غَرز الخرطوم في جلد الجاموس الغليظ المتين الذي ربَّما لو طعنت فيه بمسلَّة شديدة المتن رهيفة الحدِّ؛ لانكسرت، وجعل خرطومه مجوَّفًا مع دقَّته ليجري الدم الرقيق إلى باطنه وتغذيته...»[1]. ثُمَّ يسترسل في ذكر هذه العجائب بالاستناد، وما فيه من موضوعيَّة بالمرجعيَّات وزيادة، حتَّى يقول: «ومن أراد النظر في بعض ما أبدعه الله سبحانه من العجائب واخترعه من الغرائب، فعليه بكتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»[2].

من علوم القرآن الكريم

تمثِّل (علوم القرآن)[3]- وقد تقدَّم بنا بعض من توظيف الشَّيخ الكفعميّ لها- برامج خاصَّة من النُّصوص الواصفة الثانية التي تقوم عليها العمليَّة التَّفسيريَّة، والممارسة الإنجازيَّة في الكشف والبيان، ولعلَّها برمجيَّات من جدل قائم على أن توصيف ما في نحو الإجراء لا يكون تكوينًا إلَّا مقترنًا بالممارسة والاشتغال، وهذا الأخير بلا ريب، لا يقوم إلا بأدواته ووسائله، إذ لا يوجد نصّ قرآنيّ خالٍ من هذه المعارف، وهي بالضَّرورة نتائج محصول أدوات وآليَّات ووسائل ومنهجيَّات، وهو بدوره، أعني: النَّص المقصود، يكشف عنها، مفاتيح لا غنى عنها في التَّوجيه، ويعتمد عليها المفسِّر في الفهم والتَّفسير والتَّأويل.

(١) صفوة الصِّفات: ١٤٨-١٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٥١.

(٣) ينظر في مقولات العلماء فيها، وفي عددها وأنواعها وأصنافها، الأصوليّ منه والفرعي: البرهان في علوم القرآن، الزركشيّ: ١/ ٢٩، ومعترك الأقران، السيوطيّ: ١/ ٢٠.

ولقد توسَّل الشّيخ الكفعميّ ﵀ ببعض منها، يستوضح النَّصَّ القرآنيّ بوساطتها، ويستنبط منه دلالاته ومقاصده، فمن ذلك مثلًا:

أسماء القرآن الكريم وصفاته:

عمد الشَّيخ الكفعميّ ﵀ في تمثيلاته التَّفسيريَّة، إلى محاولة ذكر بعض الأسماء والصِّفات التي للقرآن الكريم، يمكن ترجمتها على نحو ما يأتي:

١. **العزيز، الكريم**: قال ﵀: «قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[١]، أي: عزيز»[٢].

٢. **الكلمة**: قال ﵀: «قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[٣]، أي: حُجَّة ربِّك وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وقيل: هي القرآن»[٤]. وقال ﵀: «قيل: معنى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٥]، أي: مؤمنًا بكتاب الله، وسُمِّي الكتاب كلمة كما قيل للقصيدة: كلمة. قاله الطبرسيّ»[٦]. وقال ﵀: «وفي الحديث: أعوذ بكلمات الله التَّامَّات: يعني: القرآن...»[٧].

٣. **النِّعمة والرَّحمة**: قال ﵀ ناقلًا عن «صاحب العِدَّة: الرَّحمة هي النِّعمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٨]، أي: نعمة. ويُقال للقرآن: رحمة، وللغيث: رحمة، أي: نعمة...»[٩].

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٧٧.
(٢) صفوة الصِّفات: ١١٦.
(٣) سورة الأنعام، من الآية: ١١٥.
(٤) صفوة الصِّفات: ١٣٣.
(٥) سورة آل عمران، من الآية: ٣٩.
(٦) صفوة الصِّفات: ١٤١.
(٧) المصدر نفسه: ١٤٣.
(٨) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٩) صفوة الصِّفات: ٢٥٧.

٤. **الحكيم، وموعظة**: قال﵀: «﴿وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[١]، يعني: القرآن، جاء بالحكمة في تأليفه ونظمه. وقوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[٢]، أي: ذي الحكمة، أو لأنَّه ناطق بالحكمة، أو لأنَّه كلام حكيم، فوصفه بصفة المتكلِّم به. وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾[٣]، جاء في التفسير: الحكمة النُّبوَّة، والموعظة: القرآن»[٤].

٥. **الفرقان**: قال﵀: «قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَا فَرَقۡنَٰهُ﴾[٥]، أي: فصَّلناه، وأحكمناه، وبيَّنَّاه، وقُرئ مشدَّدًا، أي: أنزلناه مُفرَّقًا منجَّمًا في النّزول. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾[٦]، يعني: التوراة تفرِّقُ بين الحلال والحرام، وقيل: إنَّ الفرقان هنا انفراق البحر»[٧].

٦. **مجيد**: قال﵀: «قوله تعالى: ﴿قُرۡءَانٌ مَّجِيدٌ﴾[٨]، أي: كريم عزيز، وقال الهرويّ في غريبيه: في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾[٩]، أي: الشريف، والمجد في كلامهم: الشرف الواسع...»[١٠].

التَّأويل إجراءً:

يمثِّل (التَّأويل)[١١] واقعًا جهة انعكاس عدوليّ من الظَّاهر الدَّال على شيء إلى

(١) سورة آل عمران، من الآية: ٥٨.
(٢) سورة يس، الآيتان: ١-٢.
(٣) سورة النحل، من الآية: ١٢٥.
(٤) صفوة الصِّفات: ١٤٦.
(٥) سورة الإسراء، من الآية: ١٠٦.
(٦) سورة الأنبياء، من الآية: ٤٨.
(٧) صفوة الصِّفات: ٢١٩.
(٨) سورة البروج، من الآية: ٢١.
(٩) سورة ق، من الآية: ١.
(١٠) صفوة الصِّفات: ٤٥٥.
(١١) لا يُذكر (التَّأويل) إلاَّ ومعه (التفسير) ثنائيَّة معرفيَّة في الدَّرس القرآنيّ، وعلى جدلٍ في=

مدرك لطيف، لا ينكشف سرّه، إلَّا بأصوله وضوابطه الاعتباريَّة، وهي شبكة من المفاهيم جرى عليها توصيفه الموضوعيّ في: «صرف اللَّفظ عن معناه الظَّاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقًا للكتاب والسُّـنَّة...»[1]، وهو الأمر الذي يجعل منه حلاًّ لإشـكاليَّات التَّعارض النَّصِّيّ ودلالة المعقول، ولقد لجأ الشَّيخ الكفعمي إلى التَّأويل بوصفه الإجرائيّ، إذ ذكر سمته في مدارك العلم وأهله، دلالة على أهمِّيَّته وعظم منزلته، قال: «أمَّا العلم، فناهيك به جلالةً وشرفًا أنَّ شهادة أهله مقرونة بشهادة الله وملائكته في قولـه تعـالى: ﴿ شَهِـدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾[2]... وذكرهـم في علم التَّأويل مع نفسـه، فقـال: ﴿ وَمَا يَعْـلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾[3]...»[4].

واعتمـل عـلى أساسـه الإجرائيّ توجيه بعـض النُّصـوص لمفاهيمها العقديَّة بحسـب مـا تقتضيها أصولهـا الاعتباريَّة، ناقلًا. قال: «المراد بوجهه تعـالى هنا ذاته، والعرب تذكـر الوجه وتريد به صاحبـه، فيقولون: أكرم الله وجهـك، أي: أكرمك الله، ويقال:

=مقولَتَين: موافقة، ومفارقة، جاء في [زاد المسير، مقدِّمته: ١/ ١٢]: «اختلف العلماء هل التَّفسير والتَّأويـل بمعنـى أم يختلفان؟ فذهب قوم يميلون إلى العربيَّـة إلى أنَّهما بمعنى. وهذا قول جمهور المفسِّريـن المتقدِّمين. وذهب قوم يميلون إلى الفقه إلى اختلافهما، فقالوا التَّفسـير: إخراج الشيء مـن مقام الخفاء الى مقام التجلِّي، والتأويل: نقـل الكلام عن وضعه فيما يحتاج في إثباته إلى دليل، لـولاه ما ترك ظاهر اللفـظ، فهو مأخوذ من قولك: آل الشيء إلى كـذا، أي: صار إليه». وينظر: مجمع البيان، مقدِّمته، الطبرسيّ: ١/ ١٣، والبرهان في علوم القرآن، الزركشيّ: ٢/ ٩٧، والاتقان في علوم القرآن، السـيوطيّ: ٤/ ١٥٥، والتَّمهيد في علوم القـرآن، محمَّد هادي معرفة: ٩/ ٢١، وأصـول التَّفسـير والتأويل، كمال الحيـدريّ: ٢١٣، وما بعدها، والمبادئ العامَّة لتفسـير القرآن الكريم، محمَّد حسين عليّ الصغير: ٢٠ وما بعدها، وفلسفة التأويل، نصر حامد أبو زيد: ١١.

(١) التَّعريفات، الشريف الجرجانّي: ٧٢.

(٢) سورة آل عمران، من الآية: ١٨.

(٣) سورة آل عمران، من الآية: ٧.

(٤) صفوة الصِّفات: ٢٧٠.

هذا وجه الرأي، أي: الرأي نفسه. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1]، أي إلَّا إيَّاه، وفي كتاب الاعتقادات: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، أي: دينه. قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾[2]، أي: قصدك. وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[3]. قد أعلم أنَّ الوجوه كلُّها له، فأينما وجَّه أمَّة محمَّدﷺ يتعبَّد بها، فذلك الوجه له. وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[4]، أي: يخرُّ على وجهه. قال ابن عرفة: الكافر مغلول اليد، ومن شأن الإنسان أن يتَّقي وجهه بيده، فأعلم الله تعالى أنَّ الكافر يتَّقي بوجهه. وقوله تعالى: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾[5]، لله، أي: قصدتُ بعبادتي وتوحيدي إليه. فالوجه مستقبل كلّ شيء. قاله الهرويّ»[6].

ومن ذلك أيضًا، في مدارين من تأويل لاحق لحديث سابق، يرشد إليه بنصٍّ قرآنيٍّ، ثُمَّ تأويل ما في المعنى القرآنيّ من معنى وقصد، قال رحمه الله: «في العلل: أنَّ الله تعالى خلق السَّماوات من بخار النَّار، والأرض من زبدة الماء، والجبار من الأمواج. قلتُ: كأنَّ البخار هنا عبارة عن الدُّخان المشار إليه في التَّنزيل بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[7]، ومعنى استوى إلى السَّماء، أي: قصد لها. وكلٌّ من فرغ من أمرٍ وعمد إلى غيره، قيل: استوى له وإليه، والمعنى: ثمَّ دعاه داعي الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض»[8].

(١) سورة القصص، من الآية: ٨٨.
(٢) سورة الروم، من الآية: ٣٠.
(٣) سورة البقرة، من الآية: ١١٥.
(٤) سورة الزمر، من الآية: ٢٤.
(٥) سورة الأنعام، من الآية: ٧٩.
(٦) صفوة الصفات: ١٢١-١٢٣.
(٧) سورة فُصِّلت، من الآية: ١١.
(٨) صفوة الصفات: ٣١٩.

ومنه أيضًا ما في كلمة (النُّور)، وما فيه من اختلاف، بحسب المرجعيَّات، قال قدس سره: «قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، أي: مدبِّر أمرهما بحكمته البالغة. وقيل: أي منوِّرهما مثل فلان غياثنا، أي: مغيثنا، وفلان زادي، أي: مزادي... قال الطبرسيّ: معناه ذو نور السماوات وصاحب نور الأرض... ورُوِيَ عن عليّ عليه السلام: أنَّ معنى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: نشر فيها الحق، فأضاءت بنوره، أو نوَّر قلوب أهلها به. قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾[2]، أي: نور هداه الذي هدى به وأضاءت به سبيل الحقّ. وقوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[3]، أي: هو نور متضاعف قد تظاهر فيه: نور الزيت، ونور المصباح، ونور الزجاجة، فلم يبقَ ممَّا يقوِّي النور، ويزيد في إضاءته بقيَّة. واختلف في هذا النور الذي أضافه سبحانه إلى نفسه، وما شبَّهه به، فذهب الأكثر من المفسِّرين إلى أنَّه نبينا محمَّد صلى الله عليه وآله، فكأنَّه قال: مثل محمَّد صلى الله عليه وآله، كمشكاة- وهي الكُوَّة التي ليست بنافذة- والمصباح قلبه، والزجاجة صدره، وشبَّهه بالكوكب الدُّرِّي ثُمَّ رجع إلى قلبه المشبَّه بالمصباح، فقال: يوقَد هذا المصباح من شجرة مباركة، يعني: إبراهيم عليه السلام؛ لأنَّ أكثر الأنبياء من صلبه أو شجرة الوحي لا شرقيَّة، ولا غربيَّة، أي: لا نصرانيَّة، ولا يهوديَّة...»[4]. ثُمّ قال قدس سره: «وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾[5]، يعني به النَّبيّ صلى الله عليه وآله»[6].

(١) سورة النور، من الآية: ٣٥.
(٢) سورة النور، من الآية: ٣٥.
(٣) سورة النور، من الآية: ٣٥.
(٤) صفوة الصِّفات: ١٦٠-١٦٢.
(٥) سورة المائدة، من الآية: ١٥.
(٦) صفوة الصِّفات: ١٦٢. وينظر: المصدر نفسه، مثلاً: ١٣٣، و١٤٦، و١٥٤، و١٦١، و ٢٣٥، و٣٢٢، و٣٥٠، و٣٨٤، و٤٥١.

أسباب النُّزول إجراءً بالمأثور الرِّوائيّ:

تخطُّ (أسباب النزول)[1] مساحة العمل القصديّ في النَّصِّ، لأنَّها تعمل كقرائن في التَّوجيه والتَّفسير وتعيين الهدف من التَّنزيل، قال الزركشيّ: «معرفة النزول... هو من أعظم المعين على فهم المعنى...»[2]، بيد أنَّ هذا لا يعني إبقاء النَّصِّ في زاوية المعنى الأوَّل، دون الإفادة منه، على قاعدة أنَّ العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب[3]، ناهيك بإشكاليَّة التعارض بينها وبين مفاهيم قاعدة: (الجري والانطباق)»[4].

ولقد أجمل الشَّيخ الكفعميّ موضوع النُّزول في الرواية، وما أورده من نصوص تحتويه معنًى ودلالةً، وبذلك يمكن لنا أن نأخذ منه مفهومه الاعتماديّ في التَّوجيه والتَّفسير، وذلك مثلًا في: «قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[5]». قال: «أي: عند نفسك، وعلى سبيل الهزء والتَّهكُّم بمن كان يتعزَّز ويتكبَّر على قومه. وروي أنَّ أبا جهل قال للنَّبيّ صلى الله عليه وآله: ما بين جبلَيها أعزُّ ولا أكرم منِّي. فنزلت»[6].

ومن ذلك أيضًا ما نقله قائلًا: «قال المقداد في كنزه: في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا

(١) ينظر في شأنه الموضوعيّ: البرهان في علوم القرآن، الزركشّي: ١/ ٣٣، و٢/ ١٢٨، والإتقان في علوم القرآن، السيوطيّ: ١/ ٩٥، والفوز الكبير في أصول التفسير، الدِّهلويّ: ١٢٨، ومباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح: ١٢٧.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٢٨.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٣٣.

(٤) ينظر: المنهج التفسيريّ عند العلَّامة الحيدريّ، طلال الحسن: ٧٩.

(٥) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

(٦) صفوة الصِّفات: ١٢٠. وينظر: المصدر نفسه: ٤١٧.

عَظِيمًا ﴾[1]، إنَّه روي عن الصادق عليه السلام أن النَّبيّ صلى الله عليه وآله لـمَّا حصَّل الغنائم من خيبر. قال نساؤه: أعطنا من هذه الغنيمة، فقال صلى الله عليه وآله: **قسَّمتها بين المسلمين بأمر الله**. فغضبن، وقلن: لعلَّك تنظر أن طلَّقتنا لا نجد زوجًا من قومنا غيرك، فأمره الله باعتزالهنَّ والجلوس في مشربة أمِّ إبراهيم حتَّى حضن وطهرن، ثمَّ أنزل الله هذه الآية، وقيل: إنَّ أزواجه سألنه شيئًا من عرض الدنيا وطلبن زيادة النفقة، وآذينه بغيرة بعضهنَّ من بعض، فآلى النَّبيّ صلى الله عليه وآله منهن شهرًا فنزلت هذه الآية، وهي آية التَّخيير»[2].

القراءات القرآنيَّة:

ذكر الشَّيخ الكفعميّ رحمه الله جملةً من (القراءات القرآنيَّة)[3] وتفسيرها وبيان المراد منها، وقد سلك في توظيفها طريقَتَين: يذكر القراءة مع تفسيرها بلا نقل ولا إحالة تارةً، بناءً على ثقافته كما يبدو؛ ويعتمد على مراجعه في التَّوصيف والتَّفسير بالنَّقل والإحالة تارة أخرى، وذلك على نحو ما يأتي:

١. في قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾[4]. قال رحمه الله: «وقُرِئَ: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾، وهو في قراءة عليّ عليه السلام، وابن عبَّاس رحمه الله، ومعناه: بلغ من كثرة آياتي، وعظم مخلوقاتي أن عجبتُ من إنكارهم البعث ممَّن هذه أفعاله، وهم يسخرون ممَّن يصفني بالقدرة على البعث»[5].

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٨-٢٩.

(٢) صفوة الصِّفات: ٣٩٨-٣٩٩.

(٣) ينظر في شأنها وموضوعها: البرهان في علوم القرآن، الزركشّي: ١/ ٢٣٨، والإتقان في علوم القرآن، السيوطيّ: ١/ ٢١٢، ومعترك الأقران، السيوطيّ: ١/ ١٢١، والتَّمهيد في علوم القرآن، = =محمَّد هادي معرفة: ٢/ ٩، ودورس تمهيديَّة في القواعد التفسيريَّة، عليّ أكبر المازندرانيّ: ١/ ٥٩.

(٤) سورة الصَّافَّات، الآية: ١٢

(٥) صفوة الصِّفات: ١٥٢.

٢. في قولـه تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾[١]. قال ﷺ: «وقـرأ ابن عباس: (في عبدي)، وقال ارجعي: ارجعي إلى صاحبك فادخلي في جسد عبدي»[٢].

٣. في قولـه تعالى: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٣]. قـال ﷺ: «أي، فاعلموا، ومن قرأ: ﴿فَأۡذَنُواْ﴾، أي: فاعلمـوا مـن ورائكم بالحرب، ومنـه قوله تعالى: ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾[٤]»[٥].

٤. في قولـه تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[٦]. قال ﷺ: «أي، كذبهم، وخَلَق الإفك واختَلَقَه وتخَلَّقَ، أي: افتراه، من قرأ: ﴿خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي عادتهم»[٧].

٥. في قولـه تعـالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[٨]. قال ﷺ: أي يقدر، وقُرِئَ: (**هل تستطيع سؤالَ ربِّك**)، بالتاء المثناة من فوق، (هل تستطيع سؤال ربَّك) في أن ينزل علينا مائدة»[٩].

الوقف والابتداء:

مـن ألعلوم القرآنيَّـة التي اتخذها الشَّـيخ الكفعمـي ﷺ كفاعليَّة إجـراء في الشَّرح والدَّلالـة على المعنى ودفع الاشـتباه علم (الوقف والابتداء)، وقد مرَّ بنا ذلك سـابقًا، قال ﷺ: «أُمِرَت العلماء بالوقوف في مواضع كثيرة من القرآن كقوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٩.
(٢) صفوة الصِّفات: ٢٠٠.
(٣) سورة البقرة، من الآية: ٢٧٩.
(٤) سورة فُصِّلَت، من الآية: ٤٧.
(٥) صفوة الصِّفات: ١٢٩.
(٦) في القراءة المنقولة، وإلَّا ففي القرآن الكريم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ سورة الشعراء، الآية: ١٣٧.
(٧) صفوة الصِّفات: ٢٦٣.
(٨) سورة المائدة، من الآية: ١١٢.
(٩) صفوة الصِّفات: ٢٦٥. وينظر: ٢٠٧، و٢١٩، و٢٦٩، و٢٧٤، و٣٠١، و٣٥١، و٤٣٩.

كَفَرٌ ﴾، فيقف القارئ هنا ثُمَّ يَبتدأ ويقول: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡ ﴾، فيقف، ثُمَّ يقول: ﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾[2]، وأمثلة ذلك كثيرة»[3].

المحكم والمتشابه:

عيَّنت مرجعيَّات الشَّيخ الكفعميّ، له مبادئ من التَّوصيف الحدِّيّ والاصطلاحيّ والفنِّيّ، ولقد نجده يرصد ثنائيَّة: (المحكم والمتشابه)[4]، في بعض نصوصه المنقولة. قال في تفسير «قوله تعالى: «﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾[5]، أي: بالأمر والنهي والحلال والحرام، ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ﴾[6] بالوعد، والوعيد، وقوله: ﴿ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ ﴾[7]، أي: غير منسوخة، ومثله: ﴿ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٞ ﴾[8]»[9]. ثُمَّ ينقل عن (صاحب الحدود)، يقول: «وفي الحدود: المحكم لا يحتمل إلَّا الوجه الذي أُريد به، والمتشابه ما يحتمل وجهَين وأكثر. وقوله: ﴿ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[10]، أي: المحكم، بدليل: ﴿ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾»[11].

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢٥٨.
(٢) سورة المائدة، من الآية: ٥.
(٣) صفوة الصِّفات: ٤٣٥.
(٤) ينظر في شأنه وموضوعه: البرهان في علوم القرآن، الزركشيّ: ٢/ ٤٥، والإتقان في علوم القرآن، السيوطيّ: ٢/ ٢٣٨، والتَّمهيد في علوم القرآن، محمَّد هادي معرفة: ٣/ ١١، ودروس تمهيديَّة في القواعد التفسيريَّة: ١/ ٧٢.
(٥) سورة هود، من الآية: ١.
(٦) سورة هود، من الآية: ١.
(٧) سورة محمَّد، من الآية: ٢٠.
(٨) سورة آل عمران، من الآية: ٧.
(٩) صفوة الصِّفات: ١٤٥-١٤٦.
(١٠) سورة يونس، من الآية: ١، وسورة لقمان، من الآية: ٢.
(١١) صفوة الصِّفات: ١٤٦.

الوجوه والنَّظائر- الرأسيّ والأفقيّ في النَّصّ القرآنيّ

تعمل اللُّغة في ميدان اتِّفاقها الاستعماليّ الرمزيّ، وهي إذ ذاك، تتَّخذ من الوحدة المعجميَّة مجالَين في التَّوظيف، الأوَّل الرأسيّ المعجميّ، والمفردة فيه واحدة وبحسب مادَّتها، والثانية: الأفقيّ التَّنظيميّ السِّياقيّ الذي يجعل من الأوَّل قيمًا مختلفة، في مجسَّات سياقيَّة متعدِّدة، تظهر على المستوى التَّواصليّ التداوليّ، ولعلَّهما المعيار القياسيّ الأوَّل، في الأغلب، إذا لم نقل في كلِّ الممارسة اللُّغويَّة وتوصيفها العلميّ.

ويبدو لي أنَّ معرفة الوجوه والنَّظائر في علوم القرآن التي تطرح على صعيد الممارسة التَّفسيريَّة للنَّصّ القرآنيّ، من المسائل اللُّغويَّة المهمَّة التي لا تخرج عن توظيف هذَين المجالَين: الرَّأسيّ الكلميّ، والعموديّ التَّنظيميّ السِّياقيّ، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ ألفاظ اللُّغة ليست على وتيرة واحدة من جهة المعنى وحيثيَّات الدَّلالة، فمنها المشترك والمترادف والحقيقة والمجاز وسواها من التَّقسيمات الدَّلاليَّة وأنواعها الأخرى، وهذه الأصناف إنَّما تتعيَّن بالاستعمال وتتشخَّص بالقرائن: الحاليَّة والمقاليَّة، والسِّياق النَّظميّ، بلا جدل، هو المدار.

ولقد وقف علماء علوم القرآن على هذه الكيفيَّات وأدركوا معاملها التَّكوينيَّة، فوجدوا أنَّ لهذه المفردات اللُّغويَّة التي ترد في النَّص القرآنيّ نظائر، ولها وجوهًا متعدِّدة في الدَّلالة والاستعمال، فعيَّنوا جهازها المفاهيميّ في علم الوجوه والنَّظائر، قال ابن الجوزيّ (ت٥٩٧هـ): «اعلم أنَّ معنى الوجوه والنَّظائر: أن تكون الكلمة واحدة، ذُكرت في مواضع من القرآن على لفظٍ واحدٍ، وحركةٍ واحدةٍ، وأُريد بكلِّ مكان معنى غير الآخر، فلفظ كلِّ كلمةٍ ذُكرت في موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر، وتفسير كلِّ كلمةٍ بمعنى غير معنى الأخرى هو الوجوه. فإذن النَّظائر: اسم للألفاظ، والوجوه: اسم للمعاني، فهذا الأصل في وضع كتب الوجوه والنَّظائر، والذي أراد العلماء بوضع كتب الوجوه والنَّظائر أن يعرِّفوا السامع لهذه النَّظائر أنَّ معانيها

تختلف، وأنَّه ليس المراد بهذه اللَّفظة ما أُريد بالأخرى...»[١].

وتابع العلماء هذه الكيفيَّة في التَّوظيف والإجرائيَّة، على الرّغم من إشكاليَّة مفهومه الاصطلاحيّ[٢]، وبلغوا به من الأهمِّيَّة أن جعلوه من أعظم وجوه الإعجاز، إذ «كانت الكلمة الواحدة تتصرَّف إلى عشرين وجهًا أو أكثر، أو أقلّ؛ ولا يوجد ذلك في كلام البشر»[٣]، وصار معيارًا لقياس الفقاهة والاستنباط، قال الزركشّي: «ذكر مُقاتل في صدر كتابه حديثًا مرفوعًا: لا يكون الرجل فقيهًا كلَّ الفقه، حتَّى يرى للقرآن وجوهًا كثيرةً»[٤].

وأقول: وربَّما يكون قريبًا من هذه الممارسة ما في توصيف التَّفسير اللُّغويّ البيانيّ للأستاذة عائشة بنت الشَّاطئ وأستاذها فيه أمين الخوليّ، وما رُسِم فيه من منهج يقوم على أُسس كثيرة، تقارب هذه المتابعة والرصد للألفاظ القرآنيَّة، ومنها: «فهم دلالات الألفاظ: يُقدِّر أنَّ العربيَّة هي لغة القرآن، فنلتمس الدَّلالة اللُّغويَّة الأصليَّة التي تعطينا حسّ العربيَّة للمادة في مختلف استعمالاتها الحسيَّة والمجازيَّة. ثمَّ نخلص للمح الدَّلاليَّة القرآنيَّة باستقراء كلِّ ما في القرآن من صيغ اللفظ، وتدبُّر سياقها الخاصّ في الآية والسورة، وسياقها العامّ في القرآن كُلِّه»[٥]. صحيح أنَّه على سعة واختيار، ولكنَّه يجري على نحو توظيف الكيفيَّات والإجراءات أنفسها.

(١) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنَّظائر: ٨٣، وينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشيّ: ١/ ٨٤، والإتقان في علوم القرآن، السيوطيّ: ٢/ ٨١، ومعترك الأقران، السيوطيّ: ١/ ٣٨٧، والزيادة والإحسان، ابن عقيلة المكِّيّ: ٥/ ٢١٦.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٤، والزيادة والإحسان، ابن عقيلة المكِّيّ: ٥/ ٢١٨، والوجوه والنظائر في القرآن الكريم، سليمان بن صالح القرعاويّ: ١٣.

(٣) معترك الأقران، السيوطيّ: ١/ ٣٨٧.

(٤) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٤.

(٥) التفسير البيانيّ، عائشة بنت الشاطئ: ١/ ١١. وينظر: مناهج تجديد، أمين الخوليّ: ٣١٣.

وللشيخ الكفعميّ رحمه الله من هذا المنهج توظيف وإجراء كثير أيضًا، فقراءة (الصَّفوة) تلمح أنَّه ما انفكَّ يفتِّش عن هذه المفردة القرآنيَّة، ويقارنها ويقايسها بتلك مفهرسًا إيَّاها في قوائم واستعمالات يقوِّمها في التَّأسيس ويفرِّق بينها في التنظيم السِّياقيّ، وكأنَّ الأولى مغلقة على تعدُّدها واحتمالاتها الدَّلاليَّة، لتصبح ثانية منفتحة على وجوهها وسياقاتها الاستعماليَّة، والنَّسق المضمر، افتراضه: لماذا هذه المفردة وعلَّة الاختيار، وهل لها من نظير واستعمال؟ فيأخذ بها محتكمًا لسياق النَّصِّ القرآنيّ، ويغمرها بأكسير استعمالاته، فإذا بها وجوهًا ونظائر. ولقد نلمح في ذلك منه قاعدته الأولى: وهو ما لاحظه ونقله من (معاني الصَّلاة) عن وتصرَّف فيها بنقولات نصِّيَّة أخرى، زيادة ونقصًا، مع مرصوده الآتي.

ففي الأولى، قال رحمه الله: «الصَّلاة يُقال [كذا] على تسعة معانٍ، ذكرها ابن خالويه في كتاب الآل، ونحن نذكرها بلفظ غيره بزيادة ونقصان»[1]. وكذلك فعل في إحصائها.

أمَّا مرصوده القرآنيّ، وبحسب ما يرد من هذه الكلمة في النَّصّ الدُّعائيّ بداهةً على ما تقدَّم بنا من وصفٍ وقول، حتَّى كأنَّها عنوانٌ ينفذ منه إلى هذه الممارسة من إجراءات وكيفيَّات في الوجوه والنَّظائر، من ذلك مثلًا في نظائر القيام، قوله رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]، أي: في أحسن صورة. وقوام الأمر وقيامه وقيِّمه: نظامه، وعماده، وملاكه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾[3]، أي: نظامًا وملاكًا، أي: بها يستقيم أمركم. وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا﴾[4]، أي: صلاحًا، ومعاشًا لأمن الناس بها. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾[5]، أي: على الطَّاعة، وقيل: أي: لم يشركوا به شيئًا... وقوله

(١) صفوة الصِّفات: ٤٤١.
(٢) سورة التِّين، الآية: ٤.
(٣) سورة النِّساء، من الآية: ٥.
(٤) سورة المائدة، من الآية: ٩٧.
(٥) سورة فُصِّلَت، من الآية: ٣٠.

تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾[1]، على مثله، أي: فما استقاموا لكم على العهد، فاستقيموا لهم على مثله. وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[2]، أي: دين الملّة القيِّمة بالحقِّ. وقوله تعالى: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾[3]، أي: متمسِّكة بدينها، وهم قوم آمنوا بموسى وعيسى ومحمّدﷺ... وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[4]، أي: يحافظون عليها ويستمرون لأدائها، فعبَّر عن الأداء بالإقامة من قولك: قام بالأمر، إذا نهض به، وقيل: أي: يقيمونها ويعدلون أركانها من قولك: أقام العود، إذا قوَّم. وقوله تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[5]، أي: أدامها، ولم يقل: وإقامة؛ لأنَّ الإضافة قامت مقام الهاء. وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾[6]، أي: المصلِّين. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾[7]، أي: مواظبًا بالاقتصاد. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾[8]، أي: وقفوا، ولم يتقدَّموا، ولم يتأخَّروا، وليس في القيام بعد القعود، وهم يقولون للماشي: قم، أي: قف، وأقام بالمكان من هذا. والمُقامة بالضَّمِّ: الإقامة. وبالفتح: المجلس، والجماعة من الناس. وقوله تعالى: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾[9]، بالفتح، أي: لا مكان لكم، وبالضَّمِّ معناه: لا إقامة لكم، ومَقام إبراهيم، بالفتح، وهو الذي قام عليه...»[10].

وهكذا يرصد الشيخ الكفعميّ رحمه الله المفردة في مواضعها المختلفة، فتشرق وجوهًا

(١) سورة التَّوبة، من الآية: ٧.
(٢) سورة البيِّنة، من الآية: ٥.
(٣) سورة آل عمران، من الآية: ١١٣.
(٤) سورة البقرة، من الآية: ٣.
(٥) سورة الأنبياء، من الآية: ٧٣.
(٦) سورة الحج، من الآية: ٢٦.
(٧) سورة آل عمران، من الآية: ٧٥.
(٨) سورة البقرة، من الآية: ٢٠.
(٩) سورة الأحزاب، من الآية: ١٣.
(١٠) صفوة الصِّفات: ٢٦٦-٢٦٨.

بالمعنى الدلاليّ، ليست هي تلك الوجوه في المواضع الأخرى، وهي إجرائيَّة تكشف عن إمكانات حوكمة السِّياق لديه في النَّصّ القرآني، وأنَّها عندما تُستَعمَل سياقيًّا غيرها عندما تكون في وجهٍ آخر، والغرض، استفتاء ما في معناه الدَّلاليّ والقصديّ، إنَّها ممارسة تسييق لم تكتفِ بما في النَّظر الأول من معنى، بل رصدت فيه ما يكون احتماله أيضًا.

وأقول: لقد أخذت ممارسة التَّصرُّف الدَّلاليّ للكلمة لديه رحمه الله مأخذًا كبيرًا، يعاين فيها القيم الخلافيَّة والتَّوافقيَّة لهذه المفردة أو تلك، ويدقِّق فيما تُنشؤه حركة التَّكوين والنَّظميّ السِّياقيّ من وجوه ونظائر، وهو كثير كما في: الكريم[١]، والعزيز[٢]، والوجه[٣]، والأذن[٤]، والكلمة[٥]، والحكمة(٦)، والظُّلمة[٧]، وجعل[٨]، والنُّور[٩]، والرؤية[١٠]، والفرق[١١]، والوعد[١٢]، ودعوة[١٣]، والرحمة[١٤]، والمنّ[١٥]، وخلق[١٦]،

(١) صفوة الصِّفات: ١١٧.
(٢) المصدر نفسه: ١١٩.
(٣) المصدر نفسه: ١٢١.
(٤) المصدر نفسه: ١٢٩.
(٥) المصدر نفسه: ١٣٣.
(٦) المصدر نفسه: ١٤٥.
(٧) المصدر نفسه: ١٥٣.
(٨) المصدر نفسه: ١٥٧.
(٩) المصدر نفسه: ١٦١.
(١٠) المصدر نفسه: ١٩٤.
(١١) المصدر نفسه: ٢١٩.
(١٢) المصدر نفسه: ٢٣٩.
(١٣) المصدر نفسه: ٢٤٢.
(١٤) المصدر نفسه: ٢٥٨.
(١٥) المصدر نفسه: ٢٦١.
(١٦) المصدر نفسه: ٢٦٣.

والعلم[١]، وسبح[٢]، والغيب[٣]، والشَّهادة[٤]، والإيمان[٥]، والعدل[٦].

ولقد يرصد ﷺ أيضًا نحوًا آخر من الاستعمال النَّظميّ التَّوافقي للكلمة، على معنى ودلالة عامَّة، أو على نحو فروق خاصَّة. فمن ذلك مثلًا ما جاء على نحو الكُلِّيَّات في النَّصِّ القرآنيّ، كما في معنى (السلطان). قال ﷺ: «السُّلطان: مأخوذ من السَّلاطة، وهي القهر... وكلُّ سلطان في القرآن، فمعناه: الحُجَّة النَّيِّرة»[٧].

وقوله ﷺ في الفرق بين (معنى الرياح والريح): «وفي الحديقة: رياح الرَّحمة أربعة: الباشرات، والمبشِّرات، والذَّاريات، والنَّاشرات. ورياح العذاب أربعة: في البرِّ: العاصف، والقاصف، وفي البحر: الصَّرصر، والعقيم. وفي كتاب غرر الأخبار: أنَّه لم يأت لفظ الرَّيح في القرآن إلَّا في الشَّرِّ، والرِّياح إلَّا في الخير، قال تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾[٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾[٩]، وقال تعالى: ﴿ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾[١٠]. قال صاحب كتاب أغاني التَّهاني: وقد جاءت الرِّيح مفردة في يونس في الخير، في قوله تعالى: ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[١١]، وكان ﷺ إذا هبَّت الرِّيح، يقول: اللَّهمَّ اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا. والسَّبب في ذلك أنَّ ريح العذاب

(١) صفوة الصِّفات: ٢٧١.
(٢) المصدر نفسه: ٣٥٩.
(٣) المصدر نفسه: ٤٢٩.
(٤) المصدر نفسه: ٤٣١.
(٥) المصدر نفسه: ٤٣٥.
(٦) المصدر نفسه: ٤٣٨.
(٧) المصدر نفسه: ٣١١.
(٨) سورة الذاريات، الآية: ٤١.
(٩) سورة القمر، من الآية: ١٩.
(١٠) سورة الروم، من الآية: ٤٦.
(١١) سورة يونس، من الآية: ٢٢.

شـديدة وملتئمة الأجزاء، كأنَّها جسـم واحـد، وريح الرحمة ليِّنـة متقطِّعة، فلذلك هي الرياح، وهـو معنى قوله تعالى: ﴿نَشْرًا﴾[1]، أي: منتشرة متفرِّقة، وإنَّما أفردها سـبحانه مـع الفُلْك؛ لأنَّ ريح أجزاء السـفن إنَّما هي واحـدة متَّصلة، ثُمَّ وُصِفَـت بالطيِّبة فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب»[2].

إنَّ توظيـف نظـم اللُّغـة المخصوصـة في النَّصِّ القرآنيّ؛ اشـتغالَ البيـان ولأجله، ولتوضيـح القصد وغايتـه، تقضي حتمًا بما تقدَّم من سـلوك معرفيّ، وإجراء تفسـيريّ، فليـس غريبًا أن يبتعث الشَّـيخ الكريم من تلك المحاور والوجـوه الدَّلاليَّة والنَّظائر اللَّفظيَّة إلى النَّصِّ القرآنيّ، ثُمَّ يسـتدعي ما فيها من إمسـاك لهذا المعنى، أو تلك الدَّلالة، إنَّها منهجيَّة تُفصح عن إمكاناتها الأصوليَّة، ووثاقة من أدوات ووسـائل، تُظهر القدرة على اسـتعمالها وأسلوب توظيفها في كيفيَّات إجرائيَّة، قصدًا؛ للكشف عن أسرار المعنى النَّصِّيّ المراد.

(١) سورة المرسلات، من الآية: ٣.

(٢) صفوة الصِّفات: ٢٩٩.